

سلسلة التَّوْحِيدُ أَوَّلًا (١)

القائد إلى فهم الأربع القواعد

وهو شرح متن القواعد الأربع في التَّوْحِيد
للإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهَّاب - رحمه الله -

تأليف

رائد بن عبد الجبار بن خضر المهداوي

جمع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٤٥ هـ - ٢٠٢٣ م

قناة المنهل الصافي

<https://t.me/raedalmihdawi>

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَّ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمَّدًا عبده ورسوله، أمَّا بعد:

فإنَّ متن «القواعد الأربع» للإمام المجدِّد محمَّد بن عبد الوهَّاب من أهمِّ متون العقيدة الصَّحيحة المختصرة التي تقرَّر توحيد الألوهية، وهو يعدُّ من أصول العلم ومن المتون الأساسيّة التي ينبغي على طالب العلم حفظها وفهمها في بدايات الطَّلب، ولذلك دأب العلماء على شرحه وتدريسه للطلَّاب، وهو - لوجازته وقرب معانيه وسهولة ألفاظه - نافع لعموم المسلمين وصغار المتعلِّمين، لكنَّ أخذه مع الشَّرح يزيد في فهمه، ويوضِّح مقاصده، ويقرنها بكثير من دلائلها في الكتاب والسُّنة، فيكون هذا المتن - بذلك - منطلقاً لدراسة غيره من المتون، والترقيُّ في طلب علم العقيدة وفق سلم الطَّلب ومراتبه ونُقْله، التي من تعداها عمداً ضلَّ، ومن تعدّاها جاهلاً زلَّ.

ويأتي هذا الشَّرح المختصر مستفاداً من شروح علماء السُّنة وكتب التفسير والحديث والعقيدة واللُّغة، وأصله دروس أُلقيت على مسامع طلبة العلم في دورات علميّة تارة، ودروس هاتفيّة تارة أخرى، فعزمت على إعادة النّظر فيه وتهيئته للنَّشر؛ كي تعمَّ فائدته، وأسميته: «القائد إلى فهم الأربع القواعد».

أسأل الله تعالى أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، نافعا لعباده المتّقين، إنَّه سميع مجيب.

كتبه

أبو عبد الرحمن رائد بن عبد الجبَّار بن خضر المهداوي

صباح الجمعة ٢ صفر ١٤٤٥ هـ الموافق: ١٨ أغسطس ٢٠٢٣ م

ضاحية الرِّيَّحان، رام الله - فلسطين.

التعريف بمؤلف «القواعد الأربع»

هو الإمام محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عليّ النجديّ التّيميّ، أحد المجتهدين في الإسلام، وداعية التّوحيد والعقيدة السّلفيّة، ولد سنة «١١١٥هـ» في بلدة «العينة» النّجديّة، حفظ القرآن قبل بلوغه العاشرة، وصلى بالنّاس وهو ابن اثني عشر عامًا، وكان حادّ الفهم، وقادّ الذّهن، سريع الحفظ، فصيحًا فطنًا، تلقّى العلم على أبيه قاضي عينة، وكان عالمًا فاضلاً، ثمّ ارتحل فتلقّى العلم على بعض علماء مكّة والمدينة، والإحساء والبصرة، ولمّا حصّل بغيته من العلم رجع إلى بلده «العينة»، فأخذ يدعو إلى التّوحيد ومحاربة الشّرك في بلاد نجد بالمراسلات والمكاتبات أوّلاً، وبعد وفاة أبيه كان الشّيخ قد عُرِف عند النّاس؛ الخاصّة والعامّة، فأخذ يدعو إلى التّوحيد، ويدرس ويؤلّف المؤلّفات النّافعة، وينكر على أهل البدع وعباد القبور، وكان من فضل الله تعالى عليه وتوفيقه له أن نصر دعوته الإمام محمد ابن سعود، وأبناءؤه وأحفاده من بعده، فأيدت دعوته القائمة على العلم الصّحيح من الكتاب والسّنّة ومنهج السّلف بقوة السّلطان الصّالح، فزادها ذلك ظهورًا وانتشارًا.

من مؤلّفات الإمام محمد بن عبد الوهاب: «ثلاثة الأصول وأدلتها»، و«القواعد الأربع»، و«كشف الشّبهات»، و«الأصول السّتّة»، و«كتاب التّوحيد فيما يجب من حقّ الله على العبيد»، و«مسائل الجاهليّة»، و«مجموع الحديث على أبواب الفقه»، و«مختصر الإنصاف والشرح الكبير في الفقه»، و«مختصر السّيرة»، و«كتاب الكبائر»، وغيرها.

وبعد عمُر مديد قضاه الشّيخ في الدّعوة والجهاد في سبيل نشر العقيدة السّلفيّة، تُوِّفّي سنة ألفٍ ومئتين وستّ هجريّة، عن إحدى وتسعين سنة، فرحمه الله رحمة واسعة، وأجزل مثوبته، وأعظم أجره على ما قدّم للإسلام والمسلمين.

انظر ترجمته في: «تاريخ نجد» لابن غنّام ص (٨١)، و«عنوان المجد في تاريخ نجد» لابن بشر (٣٣ / ١)، و«علماء نجد خلال ثمانية قرون» للشيخ عبد الله البسام (١ / ١٢٥).



التعريف بمتن «القواعد الأربع»

«القواعد الأربع» رسالة مختصرة مستقلة من رسائل الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب ومؤلفاته النافعة، تقع في أربع صفحات - تقريباً - من القطع المتوسط، وهي مطبوعة بطبعات مستقلة كثيرة، وطبعت - أيضاً - في المجلد الأول من مجموع مؤلفات الشيخ - رحمه الله - بإشراف جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الرياض.

وسميت كذلك؛ لأنها تضمنت أربع قواعد مهمة من قواعد التوحيد، ذكرها الله تعالى في كتابه العزيز في آيات كثيرة، ثم إنَّ الشيخ - رحمه الله - استنبطها وقررها وقرَّبها للطلاب وعامة الناس في هذه الرسالة النافعة.

ومقاصدها تدور حول تقرير توحيد الألوهية الذي هو توحيد العبادة، وهو توحيد الأنبياء والمرسلين، ووجوب البراءة من الشُّرك بصوره كافة، ومنها ومن أبرزها وأشهرها: الغلوُّ في الصالحين، ودعاء أصحاب القبور، والاستغاثة بهم، وسؤالهم الشفاعة، وطلب القربى من الله بهم.

ومن مقاصدها كذلك: تقرير أنَّ توحيد الربوبية وحده لا يجعل العبد موحِّداً ناجياً من الخلود في النار يوم القيامة؛ فإنَّ المشركين الذين دعاهم النبيُّ - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - إلى التَّوحيد ثم قاتلهم عليه كانوا مقرِّين بتوحيد الربوبية، ولكنهم نازعوا النبيَّ - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - في توحيد الألوهية، واستكبروا عن إفراد الله تعالى بالعبادة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ وَيَقُولُونَ آيَاتُنَا لَنَآرِكُوآءِ الْهَيْتَنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ ﴿٣٦﴾ [الصَّافَّات: ٣٥-٣٦].



متن رسالة «القواعد الأربع»

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - :

بسم الله الرحمن الرحيم

أسأل الله الكريم ربَّ العرش العظيم أن يتولَّاكَ في الدُّنيا والآخرة، وأن يجعلك مباركًا أينما كنت، وأن يجعلك ممَّن إذا أُعطيَ شكر، وإذا ابتليَ صبر، وإذا أذنب استغفر، فإنَّ هؤلاء الثلاثة عنوان السَّعادة.

اعلم - أرشدك الله لطاعته - أنَّ الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].
فإذا عرفت أنَّ الله خلقك لعبادته، فاعلم أنَّ العبادة لا تسمَّى عبادة إلاَّ مع التَّوحيد، كما أنَّ الصلاة لا تسمَّى صلاة إلاَّ مع الطَّهارة؛ فإذا دخل الشُّرك في العبادة فسدت، كالحديث إذا دخل في الطَّهارة.

فإذا عرفت أنَّ الشُّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النَّار؛ عرفت أنَّ أهمَّ ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ الله أن يخلصك من هذه الشَّبكة، وهي الشُّرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه.

القاعدة الأولى: أن تعلم أنَّ الكفار الذين قاتلهم رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - مُقِرُّون بأنَّ الله تعالى هو الخالق المدبِّر، وأنَّ ذلك لم يدخلهم في الإسلام، والدَّليل قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدِيرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

القاعدة الثانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجهنا إليهم إلا لطلب القربة والشفاعة.

فدليل القربة قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ۝﴾ [الزمر: ٣]

ودليل الشفاعة قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ ۖ﴾ [يونس: ١٨].

والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفية، وشفاعة مثبتة.

فالشفاعة المنفية: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله. والدليل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةَ وَلَا شَفْعَةً ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝﴾ [البقرة: ٢٥٤]. والشفاعة المثبتة هي: التي تطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

والقاعدة الثالثة: أن النبي - صلى الله عليه وسلم - ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ ۖ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ودليل الشمس والقمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [فصلت: ٣٧].

ودليل الملائكة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [آل عمران: ٨٠].

ودليل الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾﴾ [المائدة: ١١٦].

ودليل الصالحين قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مُحْذَرًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧].

ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّكَّ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٦﴾ وَمَنْوَةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠].

وحديث أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - قال: «خرجنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى حنين ونحن حُدثاء عهد بكفر، وللمشركون سُدرة يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط» الحديث.

القاعدة الرابعة: أن مشركي زماننا أغلظ شركاً من الأولين، لأن الأولين يشركون في الرِّخاء ويخلصون في الشدة، ومشركوا زماننا شركهم دائم في الرِّخاء والشدة،

والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِكِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى
الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [٦٥] العنكبوت: ٦٥].

تمت، وصلى الله على محمد وآله وصحبه وسلّم.



قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله -:

بسم الله الرحمن الرحيم

أَسْأَلُ اللَّهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلَّكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مَبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مَمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شُكْرًا، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبْرًا، وَإِذَا أَذْنِبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ الثَّلَاثَ عَنَوَانُ السَّعَادَةِ.

«الشرح»

قَدَّمَ الشَّيْخُ - رحمه الله - بين يدي هذه القواعد المهمة بمقدمة لطيفة فيها الدُّعَاءُ لقارئ هذه الرِّسَالَةِ والمتنفع بها، وفيها - أيضًا - بيان معنى الحنيفية، والغاية من خلق الجنِّ والإنس، وكون العبادة لا تصحُّ إلا بالتَّوْحِيدِ.

وقد ابتدأ المؤلف - رحمه الله - رسالته هذه بالبسملة؛ اقتداءً بالكتاب العزيز، واقتداءً بالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، إذْ كَانَ يَفْتَتِحُ كِتَابَهُ الْمُرْسَلَةَ بِالْبِسْمَلَةِ، وَسِيرًا عَلَى طَرِيقَةِ السَّلَفِ فِي ذَلِكَ.

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في «فتح الباري» (١/ ٩ ط: السلفية):

«وقد استقرَّ عمل الأئمة المصنِّفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرِّسَائِلِ» اهـ.

ولم يثبت في فضل الابتداء بها حديثٌ عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وأشهر ما روي في فضلها حديث أبي هريرة، عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ لَا يُبْدَأُ بِهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَبْتَرٌ». وفي رواية: «أَقْطَعٌ».

أخرجه الحافظ عبد القادر الرَّهَآوِيُّ، ومن طريقه السُّبْكِيُّ في «الطبقات» (١/ ٦)، كما في «إرواء الغليل» للشيخ الألباني - رحمه الله - حديث (١)، وفي إسناده أحمد بن محمد بن عمران، المعروف بابن الجندي، وهو ضعيف.

قال الخطيب البغدادي - رحمه الله - في «تاريخ بغداد» (٦/ ٢٤٤): «وكان يُضَعَّف في روايته، ويُطعن عليه في مذهبه، سألت الأزهرى عن ابن الجندي فقال: ليس بشيء» اهـ.

وقال الشيخ الألباني في «الإرواء»: «ثم رواه السُّبُكِيُّ من طريق خارجة بن مصعب عن الأوزاعيِّ به، إِلَّا أَنَّهُ قَالَ: بِحَمْدِ اللَّهِ بِدَلِّ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، وخارجة هذا قال الحافظ: متروك، وكان يدلُّس عن الكذَّابين، ويقال: إِنَّ ابن معين كَذَّبَهُ» اهـ.

فالحديث ضعيف جداً.

والباء في «بسم» حرف جرٌّ يفيد معنى الاستعانة، والجارُّ والمجرور متعلّق بمحذوف؛ فعل متأخّر مناسب للسياق تقديره أكتب، أو أصنّف، ومن أهل العلم من يقدره أبتدى، والأوّل أولى؛ لأنّه أدلُّ على المراد.

«الله» لفظ الجلالة؛ علم على الرّبِّ تبارك وتعالى، وهو من أسمائه الخاصّة به، فلا يجوز أن يُسمّى أحدٌ به غير الله - عزَّ وجلَّ -، ومعناه المألوه، أي: المعبود محبة وتعظيمًا، وخضوعًا وتذلُّلاً، ويعرب مضافاً إليه.

«الرَّحْمَنُ»؛ تعرب هذه الكلمة صفة أولى للفظ الجلالة «الله».

و«الرَّحْمَنُ» اسمٌ لله مختصٌّ به لا يُسمّى به غيره - عزَّ وجلَّ -، متضمّنٌ صفة الرَّحمة، ومعناه: ذو الرَّحمة الواسعة، التي وسعت كلّ شيءٍ، وعمّت كلّ حيٍّ، قال الله تعالى: ﴿وَكَتُبْنَا لَهُ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالِ عَذَابِي أَصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السَّعْدِيُّ - رحمه الله - في «تفسيره»: «(وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ) من العالم العلويِّ والسُّفليِّ، البرِّ والفاجر، المؤمن والكافر، فلا مخلوق إلَّا وقد وصلت إليه رحمة الله، وغمَّره فضله وإحسانه، ولكنَّ الرَّحمة الخاصَّة المقتضية لسعادة الدُّنيا والآخرة ليست لكلِّ أحد، ولهذا قال عنها: (فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ) المعاصي، صغارها وكبارها» اهـ.

«الرَّحِيم» تعرب صفة ثانية للفظ الجلالة «الله».

و«الرَّحِيم» من الأسماء غير المختصة به سبحانه، فيجوز أن يطلق على الإنسان أو يوصف به، فيقال: رجل رحيم، وجاء في حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - في الصَّحيحين قوله - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : «فإنَّما يرحم الله من عباده الرُّحماء»، و«الرُّحماء»: جمع رحيم، وقال الله تعالى عن نبيِّه مُحَمَّد - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

واسم الله «الرَّحِيم» يتضمَّن صفة الرَّحمة، ومعناه: ذو الرَّحمة الواصلة، فهو سبحانه وتعالى الموصل رحمته لمن يشاء من عباده، وهي رحمة خاصَّة بالمؤمنين؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَأَكْتُبُ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا إِلَيْكَ قَالٌ عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَنَ أَشَاءَ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وأسماء الله تعالى منها ما يختصُّ به فلا يجوز تسمية المخلوق به، كمالك الملك، والخالق والرازق والرَّزاق والرحمن، ومنها ما يجوز إطلاقه على المخلوق، وهي الأسماء المشتركة، كالرحيم والمَلِك والعزیز والسَّمِيع والبصير، فإنَّها في حقِّ الله تعالى تدلُّ على الكمال المطلق، وفي حقِّ المخلوق تدلُّ على ما يليق به.

وعقيدة أهل السُّنَّة والجماعة في هذا الباب: وجوب الإيمان بأسماء الله وصفاته وإثباتها من غير تحريف أو تعطيل أو تكييف أو تمثيل، والإيمان كذلك بأحكام الصِّفات؛ فنؤمن بأنَّ الله تعالى هو الرَّحمن الرَّحيم، ومن صفاته الرَّحمة المتعلِّقة بمخلوقاته، ومن آثار رحمته نعمه وإحسانه لعباده، ونؤمن بأنَّ الله تعالى هو العليم، وأنَّه ذو علم يعلم به كلُّ شيء، وأنَّه القدير، ذو قدرة يقدر بها على كلِّ شيء، وهكذا. فيكون بذلك معنى البسملة في كلام المؤلف: أكتبُ - أو: أبتدئُ كتابتي وتأليفي - متبرِّكاً ومستعيناً باسم الله تعالى، المستحقُّ للعبادة وحده دون سواه، الموصوف بصفات الجلال والكمال، ومنها صفة الرَّحمة الواسعة العامَّة، وصفة الرَّحمة الواصلة الخاصَّة.

والبسملةُ من أبلغ الثناء على الله، فيصحُّ الاقتصارُ عليها والدخولُ في موضوع الكتاب مباشرة دون خطبةٍ ومحمّلة، وهذا صنيعُ الإمام البخاريِّ في صحيحه، وكذلك «تصانيفُ الأئمّة من شيوخ البخاريِّ وشيوخ شيوخه، وأهل عصره كمالك في الموطأ، وعبد الرزاق في المصنّف، وأحمد في المسند، وأبي داود في السُّنن، إلى ما لا يحصى ممَّن لم يقدِّم في ابتداء تصنيفه خطبةً، ولم يزد على التسمية، وهم الأكثر، والقليل منهم من افتتح كتابه بخطبة». قاله الحافظ ابن حجر - رحمه الله - في «الفتح» (٩ / ١).

وقال الحافظُ ابنُ حجرٍ في «فتح الباري» (٨ / ١) أيضاً - موجهًا صنيع الإمام البخاري في اقتصاره على البسملة دون الحمّلة -:

«ويؤيِّده أنَّ أوَّل شيءٍ نزل من القرآن: (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ)، فطريق التَّأسي به الافتتاح بالبسملة، والاقتصارُ عليها ... ويؤيِّده أيضاً وقوع كتب رسولِ الله - صلَّى الله عليه وسلَّم - إلى الملوك وكتبه في القضايا مفتوحة بالتسمية دون حملة وغيرها، كما سيأتي في حديث أبي سفيان في قصّة هرقل في هذا الباب، وكما سيأتي في حديث البراء

في قصّة سهيل بن عمرو في صلح الحديبية، وغير ذلك من الأحاديث، وهذا يشعر بأنّ لفظ الحمد والشهادة إنّما يُحتاج إليه في الخطب دون الرسائل والوثائق، فكأنّ المصنّف لمّا لم يفتتح كتابه بخطبة أجراه مجرى الرسائل إلى أهل العلم؛ لينتفعوا بها فيه تعلّمًا وتعليمًا اهـ.

فمن افتتح كتابه بالبسملة والحمدلة فله في ذلك سلفٌ، ومن اقتصر على البسملة له سلفٌ أيضًا، والأمر واسع.

وهذه الدّعوات الخمس المباركات التي افتتح الشيخ بها رسالته غايتها: التلطف مع طالب العلم أو المدعوّ عمومًا، والرفق به، ولفت انتباهه، وتشويقه وتهيئته لما سيقروّه أو يلقي عليه، والشيخ - رحمه الله - جمع هنا بين التعليم والدّعاء للمتعلّم، وهذا هو غاية النّصح، وأمانة الإخلاص لله تعالى.

أما الدّعوة الأولى فقولُه: «أن يتولّاك في الدّنيا والآخرة».

أي: أن يكون الله حسبك وكافيك وناصرك وهاديك، ومثبتك على الإسلام والسّنة في الدّنيا، وغافر ذنبك ومدخلك الجنّة في الآخرة.

وهذه دعوة عظيمة، فمن تولّاه الله تعالى أخرجّه من الظّلمات إلى النّور؛ أخرجّه من ظلمات الشّرك والجهل والبدعة وشرّ الفتن، إلى نور التّوحيد والعلم والسّنة والهداية التّامة والسّعادة بالنّجاة من الفتن، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَئِكَ لَهُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة: ٢٥٧].

وولاية الله تعالى لا ينالها إلّا المؤمنون إيمانًا صحيحًا مبنيا على عقيدة صحيحة وفهم صحيح وعمل صواب، وخشية لله تعالى، كما بيّنه الله تعالى بقوله: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾، وبقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ

﴿١١﴾ [محمد: ١١]، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ [يونس: ٦٢-٦٣]، وبقوله: ﴿إِنَّ وَلِيََّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ ۖ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ ﴿١٩٦﴾ [الأعراف: ١٩٦].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسيره» (٣/ ٥٣٠): «أي: الله حسبي وكافي، وهو نصيري وعليه مُتَكِلِي، وإليه أَلْجَأُ، وهو وَلِيِّي في الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وهو وَلِيُّ كُلِّ صَالِحٍ بعدي» اهـ.

والولاية ولايتان لا ثالث لهما: ولاية الرَّحْمَنِ، وولاية الشَّيْطَانِ، فإمَّا أن يكون العبد لله وليًّا، وإمَّا أن يكون للشَّيْطَانِ وليًّا، عياذ بالله تعالى من الشَّيْطَانِ وحزبه.

الدَّعْوَةُ الثَّانِيَةُ قوله: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ».

وهذا فضل عظيم من الله تعالى؛ أَنْ يَجْعَلَ عبده مُبَارَكًا أينما كان؛ مُبَارَكًا في قوله وفعله، مُبَارَكًا في علمه النَّافِعِ وعمله الصَّالِحِ، مُبَارَكًا في أهله وذريَّته وآثاره الطَّيِّبَةِ ومآثره الحميدة وأخلاقه الكريمة، وأعظم البركة الدَّلَالَةُ عَلَى الْحَقِّ والهُدَى، وتمسيك النَّاسِ به، ومحاربة ما أحدثه المحدثون وابتدعه المبتدعون في العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق، فغاية التوفيق أَنْ يكون العبد مُبَارَكًا في دعوته إِلَى السُّنَّةِ، وإظهاره لها، وثباته عليها، ودفاعه عنها، والصَّبْرُ عَلَى الْأَذَى في سبيلها.

وقد أخبر الله سبحانه وتعالى عن عيسى - عليه السَّلَام - بقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَنِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ ﴿٣١﴾ [مريم: ٣١].

قال الشيخ العلامة عبد الرَّحْمَنِ السَّعْدِيُّ - رحمه الله - في «تفسيره»: «﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ﴾ أي: في أيِّ مكان، وأيِّ زمان، فالبركة جعلها الله فيّ، من تعليم الخير والدَّعْوَةِ إِلَيْهِ، والنَّهْيِ عَنِ الشَّرِّ، والدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، فَكُلُّ مَنْ جَالَسَهُ أَوْ اجْتَمَعَ بِهِ نَالَتْهُ بَرَكَتُهُ، وَسَعَدَ بِهِ مُصَاحِبُهُ» اهـ.

الدَّعْوَةُ الثَّالِثَةُ قَوْلُهُ: «وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شُكْرًا».

من أعظم المراتب وأسنَى المطالب أن يكون العبد شاكرًا لله تعالى على نعمه، وغالب الخلق - إلا من رحم الله وقليل ما هم - يغفلون عن شكر الله تعالى على نعمه؛ قال الله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرُونَ﴾ [سبأ: ١٣]؛ وشكر الله تعالى على نعمه عبادة مستقلة محبوبة له سبحانه وتعالى، ومَرْضِيَّةٌ عنده، فهو يحبُّ الشَّاكرين، ويرضى الشُّكر ولا يرضى الكفر، كما قال تعالى: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧].

والله تعالى يستحقُّ الشُّكر لذاته وكمال أسمائه وصفاته، وإسباغه النِّعم الدِّنيَّة والدُّنيويَّة على عباده، لذا أمرهم سبحانه وتعالى أن يشكروه فقال: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كما في «مجموع الفتاوى» (١١ / ١٣٥): «فإنَّ مذهب أهل السُّنة أنَّ الشُّكر يكون بالاعتقاد والقول والعمل؛ قال الله تعالى: ﴿أَعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ [سبأ: ١٣]، وقام النَّبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى تورَّمت قدماه، ف قيل له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - «أفلا أكون عبدًا شكورًا» اهـ.

وهذا الحديث الذي استدلَّ به شيخ الإسلام - رحمه الله - : «وقام النَّبيُّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حتى تورَّمت قدماه»؛ أخرجه البخاريُّ (٤٨٣٦)، ومسلم [٨٠- (٢٨١٩)] عن المغيرة بن شعبة - رضي الله عنه -، وأخرجه مسلم - أيضًا - [٨١- (٢٨٢٠)] عن عائشة - رضي الله عنها -.

وقال العلامة ابنُ القيِّم - رحمه الله - في كتابه «الفوائد» [ص (١٨٥-١٨٨) ط: دار عطاءات العلم]: «مبنى الدِّين على قاعدتين: الذِّكر والشُّكر، قال تعالى:

﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - لمعاذ: «والله إنِّي لأحبُّك؛ فلا تنس أن تقول دُبُرُ كُلِّ صلاة: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك» [أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وقال الشيخ الألباني في صحيح «سنن أبي داود» (٢٥٣/٥): «إسناده صحيح، وصححه ابن خزيمة وابن حبان»]

وليس المراد بالذكر مجرد ذكر اللسان، بل الذكر القلبِي واللِّسَانِي، وذكره يتضمَّن ذكر أسمائه وصفاته، وذكر أمره ونهيهِ، وذكره بكلامه، وذلك يستلزم معرفته والإيمان به، وبصفات كماله ونعوت جلاله، والثَّناء عليه بأنواع المدح، وذلك لا يتمُّ إلَّا بتوحيده، فذكره الحقيقيُّ يستلزم ذلك كلَّه، ويستلزم ذكر نعمه وآلائه وإحسانه إلى خلقه.

وأَمَّا الشُّكر فهو القيام له بطاعته، والتَّقرُّب إليه بأنواع محابَّه ظاهراً وباطناً. وهذان الأمران هما جماع الدِّين؛ فذكره مستلزم لمعرفته، وشكره متضمَّن لطاعته، وهذان هما الغاية التي خلق لأجلها الجنَّ والإنس والسَّمَاوَات والأَرْض، ووضع لأجلها الثَّواب والعقاب، وأنزل الكتب، وأرسل الرُّسل، وهي الحقُّ الذي به خلقت السَّمَاوَات والأَرْض وما بينهما، وضدُّها هو الباطل والعبث الذي يتعالى ويتقدَّس عنه، وهو ظنُّ أعدائه به.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَطْلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧]، وقال: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ﴾ [٢٨] مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩]...».

إلى أن قال - رحمه الله -: «فثبت بما ذكر أن غاية الخلق والأمر أن يذكر وأن يشكر؛ يذكر فلا ينسى، ويشكر فلا يكفر، وهو سبحانه ذاكر لمن ذكره، شاكر لمن شكره؛

فذكره سبب لذكره، وشكره سبب لزيادته من فضله، فالذكر للقلب واللسان، والشكر للقلب محبة وإنابة، واللسان ثناءً وحمداً، وللجوارح طاعةً وخدمةً اهـ.

فالوفق من العباد من يشكر الله على نعمه بقلبه، محبةً لله وتعظيماً له وخشية منه، وإقراراً بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، ويشكره بلسانه بالتحدث بنعمة الله عليه، وتمجيده سبحانه، والثناء عليه بما يليق به، وحمده بصنوف المحامد، ويشكره بجوارحه بطاعته والقيام بأمره والانتهاز عن نهيه.

وأعظم النعم على العبد نعمة الهداية إلى الصراط المستقيم والطريق القويم الذي بيّنه الله تعالى على لسان رسوله - صَلَّى الله عليه وسلّم -، ولا طريق غيره يوصل إليه سبحانه وتعالى، ويتضمن ذلك الهداية إليه، والهداية فيه، والهداية عليه.

فالهداية إليه: معرفته والإيمان به، والهداية فيه: القيام بلوازم ذلك الإيمان من العلم النافع والعمل الصالح، وأمّا الهداية عليه فهي الثبات، فلا ينكص على عقبيه فيخالفه بالشرك أو البدع والمعاصي.

وهذه المعاني الثلاثة تضمنها قول الله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾

[الفاحة: ٦].

بل إنّ السعيد من العباد يوفقه الله تعالى للشكر على البلاء والضراء كشكره على السراء والنعماء؛ لأنّ البلاء يتضمنّ نعمة تكفير الذنوب ومحو الخطايا ورفع الدرجات لمن صبر عليه، فهو نعمة بهذا الاعتبار، يثيب الله تعالى عبده على شكره وصبره.

و ضدُّ الشكر كفر النعمة، وهو سبب زوالها وحلول عذاب الله وعقوباته العاجلة والآجلة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾ [إبراهيم: ٧]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ

اللَّهُ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَيَبْسُ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾ [إبراهيم: ٢٨-٢٩].

الدَّعْوَةُ الرَّابِعَةُ قَوْلُهُ: «وَإِذَا ابْتَلَى صَبْرًا».

الصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ مَعَ الْإِحْتِسَابِ وَرَجَاءِ ثَوَابِ اللَّهِ هُوَ مِنْ عِزَائِمِ الْأُمُورِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣]، وَقَالَ أَيْضًا: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ [آل عمران: ١٨٦].

وَقَدْ بَشَّرَ اللَّهُ تَعَالَى الصَّابِرِينَ بِحَسَنِ الْجَزَاءِ وَكَرِيمِ الْمَالِ فَقَالَ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [البقرة: ١٥٥]

وَيَبَيِّنُ أَنَّهُ يُوْفِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يُوفَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: ١٠].

وَمِنْ جِزَائِهِمْ: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّهَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾؛ قَالَ الشَّيْخُ السَّعْدِيُّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «تَفْسِيرِهِ»: «ثَنَاءٌ وَتَنْوِيهِ بِحَالِهِمْ، وَرَحْمَةٌ عَظِيمَةٌ، وَمِنْ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ أَنْ وَفَّقَهُمُ لِلصَّبْرِ الَّذِي يَنَالُونَ بِهِ كَمَالَ الْأَجْرِ» اهـ.

لَكِنْ مِنْ هُمُ الصَّابِرُونَ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ هَذَا الْجِزَاءَ؟ هُمْ مَنْ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [البقرة: ١٥٦].

قَالَ الْحَافِظُ ابْنُ كَثِيرٍ - رَحِمَهُ اللَّهُ - فِي «تَفْسِيرِهِ»: «تَسَلَّلُوا بِقَوْلِهِمْ هَذَا عَمَّا أَصَابَهُمْ، وَعَلِمُوا أَنَّهُمْ مَلِكُ اللَّهِ يَتَصَرَّفُ فِي عِبِيدِهِ بِمَا يَشَاءُ، وَعَلِمُوا أَنَّهُ لَا يُضِيعُ لَدَيْهِ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَأَحْدَثَ لَهُمْ ذَلِكَ اعْتِرَافَهُمْ بِأَنَّهُمْ عِبِيدُهُ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ» اهـ.

وأخرج الإمام مسلم في صحيحه [٣- (٩١٨)]، عن أم سلمة - رضي الله عنها - قالت: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - يقول: «ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتى وأخلف لي خيراً منها؛ إلا أخلف الله له خيراً منها».

قالت: فلما مات أبو سلمة قلت: أي المسلمين خيراً من أبي سلمة؟ أول بيت هاجر إلى رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم -، ثم إنني قتلها، فأخلف الله لي رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - الحديث.

وهاتان النعمتان - أعني الشكر والصبر - قد جمع النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - بينهما في قوله: «عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر فكان خيراً له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيراً له» رواه مسلم [٦٤] - (٢٩٩٩).

وكما أن الشكر يكون على النعماء والضرّاء، فكذلك الصبر يكون عليهما، لكنّ الإنسان قد يعسر عليه الشكر عند الضرّاء فيذهل عنه، كما أنّه قد يقصر في الصبر على النعماء، فيفرط في بعض ما أوجب الله عليه.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : كما في «مجموع الفتاوى» (٨ / ٢٠٩): «وما يصيب الإنسان إن كان يسره فهو نعمة بيّنة، وإن كان يسوؤه فهو نعمة؛ لأنّه يكفر خطاياهِ ويثاب عليه بالصبر، ومن جهة أنّ فيه حكمةً ورحمةً لا يعلمها العبد، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ» الآية، وكلتا النعمتين تحتاج مع الشكر إلى الصبر، أمّا الضرّاء فظاهر، وأمّا نعمة السّراء فتحتاج إلى الصبر على الطّاعة فيها، كما قال بعض السّلف: «ابتلينا بالضرّاء فصبرنا، وابتلينا بالسّراء فلم نصبر»؛ فلهذا كان أكثر من يدخل الجنّة المساكين، لكن لما كان

في السَّراء اللَّذَّة وفي الصَّراء الألم؛ اشتهر ذكر الشُّكر في السَّراء، والصَّبر في الصَّراء، قال تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَذْقْنَا الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ [هود: ٩] إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية [هود: ١١].

وأيضا صاحب السَّراء أحوج إلى الشُّكر، وصاحب الصَّراء أحوج إلى الصَّبر، فإنَّ صبر هذا وشكر هذا واجب، وأمَّا صبر السَّراء فقد يكون مستحبًّا، وصاحب الصَّراء قد يكون الشُّكر في حقِّه مستحبًّا، واجتماع الشُّكر والصَّبر يكون مع تألُّم النَّفس وتلذُّذها، وهذا حال يعسر على كثير اهـ.

الدَّعوة الخامسة قوله: «وإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفِر».

فمن علامات التَّوفيق: المسارعة إلى التَّوبة والاستغفار من الذُّنوب، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَافٍ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١].

والمعنى - كما هو مستفاد من تفسير العلامة السَّعدي - رحمه الله - : أنَّ المتقين إذا أذنبوا بترك واجب أو فعل محرَّم تذكَّروا من أيِّ مدخل دخل الشَّيطان عليهم، وتذكَّروا ما أوجب الله عليهم من لوازم الإيمان، فأبصروا واستغفروا الله تعالى، واستدركوا ما فاتهم بالتَّوبة النَّصوح والحسنات الكثيرة، فردُّوا الشَّيطان خاسئًا حسيِّرًا، قد أفسدوا عليه كلَّ ما أدركه منهم .

وقال الله تعالى في وصف المتقين وبيان جزائهم: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [١٣٢] أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ [آل عمران: ١٣٥-١٣٦].

وعن أبي ذرٍّ - رضي الله عنه - عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فيما روى عن الله تبارك وتعالى أَنَّهُ قَالَ: «يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنَّهار وأنا أغفر الذُّنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم» رواه مسلم [٥٥- (٢٥٧٧)].

قال الشَّيْخ - رحمه الله -: «فإنَّ هؤلاء الثلاثة عُنوانُ السَّعادة».

يعني : أنَّ من جمع بين الشُّكر والصَّبْر والاستغفار فقد حصَّل السَّعادة الحقيقيَّة في الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ الاتِّصاف بهذه الصِّفات يدلُّ على حياة القلب وإقباله على الله تعالى وخشيته، وعلى قدر النَّقص فيها يكون نقصُ سعادته في الدُّنيا والآخرة، والمحروم من السَّعادة من حُرِّم من هذه الثلاثة جميعاً، والله الموفق.



قال الشَّيْخ - رحمه الله :-

اعلم - أرشدك الله لطاعته - أَنَّ الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، أن تعبد الله وحده مخلصاً له الدِّين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ﴿٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].
فإذا عرفت أَنَّ الله خلقك لعبادته، فاعلم أَنَّ العبادة لا تسمى عبادةً إِلَّا مع التَّوْحِيد، كما أَنَّ الصَّلَاة لا تسمى صلاة إِلَّا مع الطَّهَّارة؛ فإذا دخل الشِّرْكَ في العبادة فسدت، كالحديث إذا دخل في الطَّهَّارة.

فإذا عرفت أَنَّ الشِّرْكَ إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النَّار؛ عرفت أَنَّ أَهمَّ ما عليك معرفة ذلك، لعلَّ الله أن يخلصكَ من هذه الشبكة، وهي الشِّرْكَ بالله، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه.

«الشرح»

قوله - رحمه الله :- «اعلم» أمرٌ بالعلم، والعلمُ: إدراك الشَّيء على حقيقته في الواقع إدراكاً جازماً، وقيل: هو مطلق الإدراك الشَّامِل للظَّنِّ واليقين، فيدخل في ذلك الأمور العلميَّة التي مبناها على الجزم والقطع، والأمور العمليَّة التي مبناها على الظَّنِّ الرَّاجِح.

و ضدُّ العلم الجهلُ، وهو ثلاثة أقسام:

الأوَّل: جهلٌ بسيط، وهو: عدم إدراك الشَّيء على حقيقته كُلياً، أو هو: خلوُّ النَّفس من العلم، أو هو: عدم العلم بالحقِّ، كما لو قيل لأحدهم: ما حكم استقبال القبلة في الصَّلَاة؟ فقال: لا أدري، فهذا جاهلٌ جهلاً بسيطاً، ويريدون بالبسيط هنا اليسير القليل وليس المبسوط وهو: الواسع الممتد.

الثاني: جهلٌ مركَّب، وهو إدراكُ الشَّيْءِ على خلافِ حقيقته، أو: هو اعتقاد خلاف الحقِّ، كما لو قال في جوابِ السُّؤالِ السَّابق: استقبال القبلة في الصلاة سنةٌ أو قال: مكروه، فهذا أدرك الحكم على خلاف حقيقته، فكان جهله مركَّباً؛ فإنَّ استقبال القبلة في الصَّلَاة لمن علم جهتها أو غلب على ظنه ذلك واجب، وهو من شروط صحتها، فمن صَلَّى إلى غير القبلة عالماً بجهتها، وهو قادرٌ على التوجه إليها، لم تصحَّ صلاته.

الثالث: قول غير الحقِّ أو العمل به، سواء كان عالماً بالحقِّ أو غير عالم به.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في «اقتضاء الصُّراط المستقيم» (١/ ٢٥٧): «من عمل بخلاف الحق فهو جاهل، وإن علم أنَّه مخالف للحقِّ، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ [النساء: ١٧]، قال أصحاب محمد - صَلَّى الله عليه وسلَّم - : «كُلُّ من عمل سوءاً فهو جاهل».

وسبب ذلك أنَّ العلم الحقيقيَّ الرَّاسخ في القلب يمتنع أن يصدر معه ما يخالفه من قول أو فعل، فمتى صدر خلافه فلا بد من غفلة القلب عنه، أو ضعفه في القلب بمقاومة ما يعارضه، وتلك أحوال تناقض حقيقة العلم، فيصير جهلاً بهذا الاعتبار» اهـ.

والعلمُ من ناحية طريق الوصول إليه قسمان:

الأول: علمٌ ضروريٌّ، وهو ما لا يتوقفُ العلمُ به على نظر وبحث واستدلال، مثل كون النار محرقة، والليل مظلمًا، والإنسان ذكراً وأنثى، ونحو ذلك.

ومن العلمِ الضَّروريِّ الشرعيُّ: الإيمانُ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، والعلمُ بوجوب الصَّلَاة المفروضة وصوم رمضان، وزكاة

المال المفروضة، وحج البيت.

الثاني: العلم النظري، وهو ضد الضروري، وهو: ما يتوقف العلم به على النظر والاستدلال، كوجوب النية وقراءة الفاتحة والاطمئنان في الصلاة، والعلم بنواقض الوضوء، ومبطلات الصيام، وشروط وجوب الزكاة، والعلم بأعمال الحج على وجه التفصيل، وهكذا.

والبدء بقوله: «اعلم» أسلوب متبع عند العلماء، ومن شواهد في كتاب الله، قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ﴾ [محمد: ١٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٣٥]، وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨].

وغايته: تنبيه السامع لأهمية العلم، وأنه يحتاج إلى التنبه واليقظة وحضور القلب ليعي العلم، ولا سبيل لحضور القلب إلا بحسن الاستماع والإصغاء وترك الشواغل. وقد أخرج الخطيب البغدادي في «الفيء والمتفقه» (٢ / ١٩٩) عن أبي عمرو بن العلاء قال: «أول العلم: الصمت، والثاني: حسن الاستماع، والثالث: حسن السؤال، والرابع: حسن الحفظ، والخامس: نشره عند أهله».

وأخرج ابن عبد البر في «جامع بيان العلم وفضله» (١ / ٤٧٦) برقم (٧٥٩)، والخطيب البغدادي في «الجامع لأخلاق الراوي» (١ / ١٩٤) برقم (٣٢٧)، عن محمد ابن النضر الحارثي قال: «أول العلم الاستماع، قيل: ثم ماذا؟ قال: الحفظ، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم العمل، قيل: ثم ماذا؟ قال: ثم النشر».

فمن آداب طالب العلم في أول أمره أن يكون صمته أكثر من كلامه، وأن ينصت لشيخه، ويحسن الاستماع له، ولا يقطع عليه كلامه كفعل السفهاء والعوام، وإذا ما أشكل عليه أمرٌ في كلام شيخه سألَه بأدب فقال: أحسن الله إليك أو نحوها من العبارات، ويذكرُ مسأَلته دون أن يقول له: قلتَ كذا وكذا، ولكنْ يقول: كأنني فهمت من الدَّرس كذا، أو سمعت كذا وكذا فأشكل عليَّ فوجَّهوني، ونحو ذلك من العبارات.

والحاصلُ أنَّ الصَّمت والاستماع من آداب طالب العلم المؤكَّدة، وأدب الطَّلَب مقدَّمٌ على الطَّلَب نفسه، وقد قيل: «علمٌ بلا أدب كَنارٍ بلا حطب، وأدبٌ بلا علم كروح بلا جسم» كما في «الجامع لأخلاق الرَّاي» للخطيب البغدادي (١ / ٨٠) برقم (١٢).

وأخرج الخطيب البغداديُّ أيضًا في «الجامع لأخلاق الرَّاي» (١ / ٨٠) برقم (١٠) عن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد، قال: قال لي أبي: «يا بني، إيتِ الفقهاء والعلماء، وتعلَّم منهم، وخذْ من أدبهم وأخلاقهم وهديهم، فإنَّ ذاك أحبُّ إليَّ لك من كثير من الحديث».

وأخرج الخطيب أيضًا في «الجامع لأخلاق الرَّاي» (١ / ٨٠) برقم (١١) عن عبد الله بن المبارك قال: قال لي مُحَمَّدُ بْنُ الْحُسَيْنِ: «نحنُ إلى كثير من الأدب أحوجُ منَّا إلى كثير من الحديث».

وأخرج ابن الجوزيُّ في «مناقب الإمام أحمد» [ص (٢٨٨) ط: دار هجر سنة ١٤٠٩هـ] عن الحسن بن إسماعيل، يقول: سمعت أبي يقول: «كان يجتمعُ في مجلس أحمد زهاء خمسة آلاف أو يزيدون، أقلُّ منْ خمس مئة يكتبون، والباقيون يتعلَّمون منه حسن الأدب، وحسن السَّمْت».

وقد أحسن من قال كما في «الجامع» لابن عبد البر (١ / ٥٧٨):

فالتمس العلم وأجل في الطلب والعلم لا يحسن إلا بالأدب
والأدب النافع حسن السمت وفي كثير القول بعض المقت
فكن لحسن السمت ما حييتا مقارفاً تحمد ما بقيتا

وقوله: «أرشدك الله لطاعته» دعاء لطالب العلم وقارئ هذه الرسالة وعموم
المنتفعين بها بالتوفيق إلى طاعة الله، وقوله: «أرشدك» من الرشد أو الرشد، وهو ضد
الغَيِّ، كما في قوله تعالى: ﴿قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله تعالى:
﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويستعمل في معنى
الهداية، وهو المقصود من قول المصنف هنا؛ والمعنى: هداك الله إلى طاعته، والاستقامة
على طريق الحق.

وقد امتنَّ الله تعالى على أصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - بأعظم المنن
الدنيَّة والنعم الإلهيَّة بأن حَبَّب إليهم الإيمان، وزَيَّنَّ في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر
والفسوق والعصيان، وجعلهم راشدين، أي: مهديين موفقين، ومسددين مباركين،
فقال الله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
وَالْعِصْيَانَ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧].

والخطاب في هذه الآية لأصحاب النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - أصالة، ولمن
جاء بعدهم ممن اقتدى بهم تبعاً، فهي من جملة مناقب الصَّحابة العامَّة، ومن جملة الثناء
العامِّ عليهم، وتضمَّنت وجوب الاقتداء بهم، والسَّير على طريقهم ومنهاجهم؛ علماً
وعملاً واعتقاداً وسلوكاً، فإنَّ الرُّشد الصَّحيح الحقيقي في اتِّباعهم والاقتداء بهم
ومحبَّتهم، وتولِّيهم ظاهراً وباطناً، فهم أبرُّ هذه الأُمَّة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلُّها

تكلُّفًا، اصطفاهم الله تعالى لصحبة نبيّه - صَلَّى الله عليه وسلّم - وتلقّي العلم عنه، والجهاد معه، فلا خيرَ إلّا ما عرفوه وتقرّبوا إلى الله به، والشرُّ كلُّ الشرِّ فيما تركوه ونبذوه، أو خالفوه وحذّروا منه، من الأقوال والأعمال والاعتقادات.

فهذا هو مقصود الشيخ - رحمه الله - من الدُّعاء بالرُّشد هنا: الهداية والتّوفيق للصرّاط المستقيم والدّين القويم الذي كان عليه النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم - وأصحابه.

قوله: «...لطاعته»؛ الطّاعةُ هي: فعل المأمور، واجتناب المحظور، مع الإخلاص لله تعالى، ومتابعة الرّسول - صَلَّى الله عليه وسلّم - . وهذا الدُّعاء «أرشدك الله لطاعته»، يدلُّ على رغبة الخير للمتعلّم، ونصح الشّيخ ومحبته له، وشفقته عليه.

قوله: «أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم».

الحنيفيّة في اللّغة من الحنَف، وهو كما في «المفردات في غريب القرآن» للرّاغب الأصفهانيّ ص(٢٦٠): «مَيْلٌ عن الضّلال إلى الاستقامة، والحنَفُ: ميل عن الاستقامة إلى الضّلال، والحنيف هو: المائل إلى ذلك، وجمعه حُنَفَاء، وَتَحَنَّفَ فلان، أي: تحرّى طريق الاستقامة، والأحنف: من في رجله مَيْلٌ» اهـ.

وملّة إبراهيم - عليه السلام - هي الحنيفيّة، وهي: الميل عن الشّرك إلى التّوحيد، وعن الباطل إلى الحقّ، وعن البدعة إلى السّنة.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ

مِنْ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٥﴾﴾ [البقرة: ١٣٥]

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران : ٦٧].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل : ١٢٠]

وأمر الله تعالى نبيه محمداً - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - باتباع ملة أبيه إبراهيم الحنيفية فقال: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل : ١٢٣]

وأثنى الله على من اتبع الملة الحنيفية، وخضع لأمر الله واستسلم له ظاهراً وباطناً، وأحسن القول والعمل، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء : ١٢٥].
والجواب: لا أحد أحسن ديناً ممن اتّصف بذلك، ولا دين حق غير ذلك.

وقد تَضَمَّنَتْ هذه الآية ثلاثة أوصاف:

الأول: إخلاص الدين لله تعالى، نبّه عليه بقوله: (أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ).

وإنما اختصّ الوجه لكرمه وشرفه، أو يقال: ذكر الوجه وأراد به الجسم كله، فإسلام الوجه لله يدلّ على استسلام القلب وإيمانه، وخضوعه وإنابته، وإخلاصه لله تعالى، وانقياد الجوارح له - عزّ وجلّ - بالطاعة.

الثاني: الاتّباع للشرع وحسن الانقياد له وعدم الإحداث والابتداع فيه، نبّه عليه بقوله: (وَهُوَ مُحْسِنٌ).

ويشمل ذلك إحسان العمل بالإتيان به كما دلّ الشرع عليه، والإحسان إلى الخلق.

الثالث: ترك الشُّرك والبراءة منه ومن أهله، وبغضه وبغض أهله، نَبَّه عليه بقوله: (وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا).

فإنَّ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ الْحَنِيفِيَّةَ هي التَّوْحِيد، ولا يكون العبد موحِّدًا إِلَّا إذا أخلص دينه لله، وترك الشُّرك، وتبرَّأ منه، وأبغضه، وأبغض أهله.

قال الله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ﴾ الآية [الممتحنة: ٤].

فالأية - والله الحمد - نَبَّهت على شروط قبول العمل.

وهذا هو عين ما جاء به الرسول - صَلَّى الله عليه وسلَّم -؛ فإنَّ ما جاء به الرسول - صَلَّى الله عليه وسلَّم - مداره على ركنين:

الأوَّل: إخلاص الدِّين لله تعالى، وهو المِلَّة الحَنِيفِيَّة.

الثاني: إحسان العمل بأن يكون صوابًا وفق سنة النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم -.
والرُّكن الأوَّل نقيضه الشُّرك.

والرُّكن الثاني نقيضه البدع المحدثه في العقائد والعبادات والمعاملات.

وقد فسَّر الشَّيْخ - رحمه الله - الحَنِيفِيَّة بقوله: «أَنْ تَعْبَدَ اللَّهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ».

وهذا التَّفْسِير مستندٌ إلى أدلَّة كثيرة تأمر بإخلاص الدِّين لله تعالى، فإنَّ إخلاص الدِّين لله تعالى هو قُطْب رَحَى الإسلام، وهو دين الرُّسُل جميعًا، ولا يتحقَّق إخلاص الدين لله تعالى - كما أسلفنا - إِلَّا بالبراءة من الشُّرك وتركه وهجره، وبغضه وبغض أهله.

فمن أدلة تفسير الشيخ - رحمه الله - للحنيفية قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ٢﴾ [الزمر: ٢]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ١١﴾ [الزمر: ١١]، وقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْهُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي﴾ [الزمر: ١٤]، ونحوها من الآيات التي تأمر بإخلاص الدين لله تعالى.

وهذا هو التوحيد الخالص الذي جاء به الرسل جميعاً؛ فالحنيفية إذن هي الملة التي مبناها على الإخلاص لله تعالى في كل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وترك الشرك في كل الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

واستدل الشيخ على وجوب إخلاص الدين لله بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦].

وهذه الآية العظيمة المحكمة تدلُّ على أنَّ الغاية المحبوبة لله تعالى التي خلق الخلق لأجلها ودعاهم لها وأمرهم بها هي: عبادته وحده لا شريك له.

لأنَّ اللام في قوله تعالى: (لِيَعْبُدُونِ) تعليلية لبيان الحكمة والغاية، وليست تعليلية موجبة بحيث يقع التلازم بين العلة والمعلول، لأنَّها لو كانت تعليلية موجبة لكان كلُّ خلق الله موحدين، والأمر ليس كذلك، فتعيَّن أن تكون تعليلية غائية لبيان الغاية والحكمة من خلق الخلق.

وقد أقام سبحانه وتعالى الأدلة الشرعية والكونية والعقلية على استحقاقه العبادة وحده، وأنَّه لا يُشرك معه أحدٌ في عبادته، ويبيِّن طريق توحيده على السنة رسله، وأضاء الطريق الموصلة إليه بمنارات واضحة، فمن عباده من يسلك ذلك الطريق القويم البين، وأكثرهم لا يفعلون رغم وضوحه، فإنَّ الشيطان قد قعد لهم صراط ربهم المستقيم، فحرفهم إلى السبل المضلة عنه بالشرك والبدع والشهوات، قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِيمَا آغَاوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ١٦﴾ ثُمَّ لَا تَيِّبُهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ

خَلَفَهُمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ [الأعراف: ١٦-١٧]،
ومن ثَمَّ صار للشَّيْطَانِ أَوْلِيَاءُ وَأَتْبَاعٌ مِنَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا
لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيْطِينِ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ
شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [الأنعام: ١١٢].

أَعْدَاءٌ لِلْمُرْسَلِينَ وَأَتْبَاعُهُمْ، يَصُدُّونَ الْخَلْقَ عَنِ التَّوْحِيدِ وَالسُّنَّةِ بِالشُّبُهَاتِ
وَالضَّلَالَاتِ، وَيَزَيِّنُونَ لَهُمُ الشِّرْكَ وَالْبَدْعَ وَالشَّهَوَاتِ، وَيَرْغَبُونَهُمْ بِهَا وَيَحْبِبُونَهَا إِلَيْهِمْ،
حَتَّى خَلَفَ فِي النَّاسِ خَلْفٌ صَارَ التَّوْحِيدُ عِنْدَهُمْ هُوَ عَيْنُ تَوْحِيدِ الْمُشْرِكِينَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ، وَهُوَ تَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ، بِإِفْرَادِهِ تَعَالَى رَبًّا خَالِقًا مَالِكًا مَدَبِّرًا، أَمَّا تَوْحِيدُ الْأَنْبِيَاءِ
وَالْمُرْسَلِينَ بِإِفْرَادِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِالْعِبَادَةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ وَتَرَكَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ مِنَ
الْأَوْلِيَاءِ وَالصَّالِحِينَ فَكَثِيرٌ مِنْهُمْ لَا يَعْرِفُونَهُ، بَلْ كَثِيرٌ مِنْهُمْ يَعَادُونَهُ وَيَعَادُونَ أَهْلَهُ
وَدَعَاتِهِ.

فَإِذَا ضَمَمْنَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، إِلَى الْآيَاتِ
السَّابِقَةِ الَّتِي فِيهَا الْأَمْرُ بِإِخْلَاصِ الدِّينِ لِلَّهِ تَعَالَى؛ تَبَيَّنَ لَنَا أَنَّ الْعِبَادَةَ وَحْدَهَا لَا تَنْفَعُ
صَاحِبَهَا وَلَا تَكُونُ مَقْبُولَةً إِلَّا مَعَ تَرْكِ الشِّرْكَ وَالْبِرَاءَةِ مِنْهُ، وَهَذَا مَا نَبَّهَ عَلَيْهِ الشَّيْخُ -
رَحِمَهُ اللَّهُ - بِقَوْلِهِ:

«فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ، فَاعْلَمْ أَنَّ الْعِبَادَةَ لَا تَسْمَى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ
التَّوْحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَسْمَى صَلَاةً إِلَّا مَعَ الطَّهَّارَةِ؛ فَإِذَا دَخَلَ الشِّرْكَ فِي الْعِبَادَةِ
فَسَدَتْ، كَالْحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَّارَةِ».

فَكَمَا أَنَّ الطَّهَّارَةَ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ الصَّلَاةِ، فَكَذَلِكَ التَّوْحِيدُ شَرْطٌ فِي صِحَّةِ كُلِّ
عِبَادَةٍ، وَكَمَا أَنَّ الْحَدَثَ يُبْطِلُ الطَّهَّارَةَ وَيَنْقُضُهَا إِذَا تَلَبَّسَ بِهِ الْإِنْسَانُ، فَكَذَلِكَ الشِّرْكَ
يَنْقُضُ التَّوْحِيدَ وَيُبْطِلُ الْعِبَادَةَ.

فالشُّرك الأكبر يبطل العبادة التي دخلها، ويبطل العمل كُلَّهُ، لأنَّه ينقض التَّوْحِيدَ ويخرج المسلم من الدائرة الإسلاميَّة، فلو أنَّ رجلاً عبد الله تعالى بصنوف العبادات من صلاة وزكاة وحجٍّ ونحوها، ولكنَّه يدعو مع الله غيره، كالأنبياء أو الصَّالحين أو الملائكة أو الجنِّ، فيرجوهم كما يرجو الله، ويطلب الشَّفاعَةَ والقربى من الله بهم؛ فهذا عمله باطل كُلُّه، لأنَّه أشرك شركاً أكبر ناقضاً للتوحيد ومنافياً لأصل الإيمان.

أما الشُّرك الأصغر فيبطل العبادة التي دخل فيها فقط.

فتبيِّن أن الشُّرك شركان:

الأوَّل: شرك أكبر مخرج من المِلَّة، ومناقض للتَّوْحِيد من كل وجه، ويقع في الرُّبوبيَّة والألوهيَّة والأسماء والصفَّات، وحَدُّه: أن تجعل لله تعالى ندّاً في الرُّبوبيَّة أو الألوهيَّة أو الأسماء والصفَّات، كدعاء غير الله، والدَّبح والنَّذر لغير الله، أو اعتقاد أنَّ لله أعواناً وشركاء يدبِّرون كتدبيره، ويتصرَّفون في الكون كتصرُّفه، أو اعتقاد أنَّ غير الله له صفات كصفات الله كالعلم والقدرة والرَّزق، وأنَّه يعلم كعلم الله، أو يشارك الله في علمه، أو يقدر كقدرته، أو يرزق من دونه.

ومن الشُّرك في الأسماء والصفَّات تعطيلها، وهو نفيها، أو نفي ما تضمنته من معانٍ لا تُقَالُ بالله تعالى أثبتَّها لنفسه أو أثبتَّها له الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -.

والجهميَّة أتباع الجهم بن صفوان عطَّلوا الأسماء والصفَّات بدعوى تنزيه الله تعالى عن مشابهة المخلوقين، فقالوا: ليس لله أسماء، وليس له صفات، وغاية ما أثبتَّه الله تعالى الوجود الدَّهْنِيَّ، أي: أنَّ الله تعالى موجود في الأذهان وليس له أسماء وصفات، فكذَّبوا بذلك القرآن الذي أثبتَّ الله تعالى فيه لنفسه الأسماء والصفَّات، وهي كُلُّها: أسماء حسنى، وصفات مثلى، تضمَّنت الكمال المطلق لله تعالى كما يليق به - عزَّ وجلَّ -.

والمعتزلة أثبتوا الأسماء وعطلوا الصفات، فقالوا: إنَّ الله سميع بغير سميع، عليم بغير علم، بصير بغير بصر، قدير بغير قدرة، ويقولون: إنه عالم بذاته، سميع بذاته، حي بذاته، قادر بذاته، لا بعلم وسميع وبصر وحياة وقدرة.

وهم أيضًا فعلوا ذلك بدعوى التنزيه، لأنَّهم زعموا أنَّ تعدد الصفات يلزم منه تعدد الآلهة ! أو مشاركة تلك الصفات لله تعالى في الألوهية ! من أين جاءت هذه الشبهة وهذه الفلسفة الضالَّة وما منشؤها؟

والجواب هو: أنَّ المعتزلة يقولون إنَّ الله قديم، والقدم هو أحصُّ وصفٍ لذاته، والصفات أيضًا قديمة، فإثباتها يعني تعدُّد القدماء ومماثلة الله في القدم، لذا يجب نفيها.

وهذا من أبطل الباطل؛ فإنَّ صفات الله تعالى قائمة بذاته، لأنَّ الصفة تقوم بالوصوف، والصفة تابعة للموصوف، والله تعالى وصف نفسه بصفات الجلال والكمال، فوجب إثباتها له كما أثبتها هو لنفسه؛ لأنه أعلم من خلقه بنفسه وبغيره، وهو أقوم قيلاً وأصدق حديثاً من خلقه.

والأشاعرة الكُلابيَّة أثبتوا الأسماء الحسنى، وأثبتوا سبع صفات أسموها الصفات الوجوديَّة وهي: «السَّمع، والبصر، والعلم، والحياة، والقدرة والإرادة، والكلام»، وحَرَّفوا الصفات الباقية عن معانيها الحقيقيَّة اللائقة بالله تعالى بما أسموه بالتَّأويل، بدعوى التنزيه أيضًا، فوقعوا في التَّعطيل، لأنَّ التَّأويل ينتهي إلى تعطيل الصفات عن معانيها الحقيقية اللائقة بالله تعالى.

والتَّعطيل مآله الشُّرك في الرُّبوبيَّة والألوهيَّة؛ فإنَّ مقالات معطلة الصفات من جنس مقالات المشركين وعباد الكواكب والصَّابئة والفلاسفة، ومآلها تعطيل الصَّانع، لذلك قال من قال من أئمَّة الدِّين والسُّنَّة: إنَّ المشبَّه يعبد وثناً، وإنَّ المعطَّل يعبد عدماً.

وعقيدة أهل السنة في الأسماء والصفات لخصها شيخ الإسلام ابن تيمية في «العقيدة الواسطية» كما في «مجموع الفتاوى» (٣/ ١٢٩) بقوله:

«ومن الإيمان بالله: الإيمان بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم -، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، فلا ينفون عنه ما وصف به نفسه، ولا يحرفون الكلم عن مواضعه، ولا يُلحدون في أسماء الله وآياته، ولا يكيفون ولا يمثلون صفاته بصفات خلقه؛ لأنه سبحانه لا سمي له، ولا كُفُو له، ولا نِدَّ له، ولا يقاس بخلقه سبحانه وتعالى؛ فإنه أعلم بنفسه وبغيره، وأصدق قِيلاً وأحسن حديثاً من خلقه.

ثم رسله صادقون مصدوقون، بخلاف الذين يقولون عليه ما لا يعلمون، ولهذا قال ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٢﴾﴾ [الصفات: ١٨٠-١٨٢].

فسبَّح نفسه عما وصفه به المخالفون للرسل، وسلم على المرسلين؛ لسلامة ما قالوه من النقص والعيب.

وهو سبحانه قد جمع فيما وصف وسمى به نفسه بين النفي والإثبات، فلا عدول لأهل السنة والجماعة عما جاء به المرسلون؛ فإنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين» اهـ.

والنوع الثاني من الشرك: الشرك الأصغر، وهو: كل قول أو عمل دلَّ الشرع على أنه شرك لا ينافي الإيمان بالكليّة، فهو ينافي كمال الإيمان ويبطل العبادة التي دخل فيها فقط، وهو كبيرة من كبائر الذنوب، وصاحبه على خطر عظيم، وقد ينزلق بصاحبه إلى الشرك الأكبر عياداً بالله، لاسيما إذا استهان بالشرك الأصغر وكثر وقوعه فيه،

وأعرض عن تعلُّمه للحذر منه، وأعرض عن تعلُّم التوحيد ولو أزمه للعمل بها، ومن أمثلته الرِّياء، وهو: أن يعمل العمل الشرعيَّ كالصلاة أو الصدقة أو طلب العلم لا يريد به وجه الله، ولكن يريد به عرض الدنيا، من مال أو رئاسة أو مدح وثناء، ونحو ذلك.

قال ابن القيم - رحمه الله - في «الدَّاءِ والدَّواء» ص (١٣٢): «إنَّ الله سبحانه إنَّما أمر بعبادته عبادة خالصة، قال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]؛ فمن لم يخلص لله تعالى في عبادته لم يفعل ما أمر به، بل الذي أتى به شيء غير المأمور به، فلا يصحُّ ولا يقبل منه» اهـ.

وفي تشبيه التَّوحيد الخالص بالطَّهارة بيانٌ لشرفه وفضله، فالتَّوحيد طهارة للباطن والظاهر من الشُّرك، وطهارة الباطن بالتَّوحيد والإيمان الصحيح أساس طهارة الظَّاهر، فما يقوم في القلب من إيمان أو كفر، أو نفاق أو إخلاص، أو حُبٍّ أو بغض، لا بد وأن يظهر أثره على الجوارح طاعة أو معصية، وقد كان من دعاء إبراهيم - عليه السلام - فيما حكاه الله تعالى عنه: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٧-٨٩].

قال الشَّيخ السَّعْدِيُّ - رحمه الله - في «تفسيره»: «والقلب السَّليم معناه: الذي سلم من الشُّرك والشَّكِّ ومحبَّة الشَّرِّ والإصرار على البدعة والذنوب، ويلزم من سلامته ممَّا ذكر: اتِّصافه بأضدادها؛ من الإخلاص والعلم واليقين، ومحبَّة الخير وتزيينه في قلبه، وأن تكون إرادته ومحبَّته تابعة لمحبة الله، وهواه تابعاً لما جاء عن الله» اهـ.

وفي تشبيه الشُّرك بالحدث تنبيه على شدة قبحه ووجوب رفعه، كوجوب رفع الحدث لصحة الصَّلاة.

وخلاصة القول: أن إخلاص الدين لله تعالى والبراءة من الشُّرك شرطُ قبول العمل، ويبقى شرطُ آخر قد علّم باستقراء الأدلّة وهو: أن يكون العمل صواباً، وذلك بموافقة السُّنّة وصدق الاتِّباع للرَّسول - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - واجتناب البدع المحدثّة، وقد ذكرنا هذا الشُّروط عند تفسير إحسان العمل في قوله تعالى: (وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ) الآية.

وقد جمع الله تعالى بين هذين الشرطين في قوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥]، وقوله: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وقال الله تعالى في سورة تبارك: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ٢﴾ [الملك: ٢].

أخرج أبو نعيم في «الحلية» (٨ / ٩٥)، وابن أبي الدنيا في «الإخلاص» برقم (٢٢) عن الفضيل بن عياض - رحمه الله - أنه كان يقول في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ قال: «أخلصه وأصوبه، فإنه إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل حتى يكون خالصاً، والخالص إذا كان لله، والصَّواب إذا كان على السُّنّة».

وهذا كلام متين من عالم راسخ في السُّنّة، وقد تلقاه العلماء بالقبول، فنقلوه عنه في مؤلفاتهم دون نكير، كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، وغيرهما.

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسيره» (٤ / ٣٠٨):

«وقوله: (لِيَبْلُوَكُمْ) أي: ليختبركم، (أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا) ولم يقل: أكثرُ عملاً، بل (أَحْسَنُ عَمَلًا)، ولا يكون العمل حسناً حتى يكون خالصاً لله - عزَّ وجلَّ -، على

شريعة رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم -، فمتى فقد العمل واحداً من هذين الشرطين بطل وحبط اهـ.

قال الشيخ - رحمه الله -: «فإذا عرفت أنّ الشّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النّار؛ عرفت أنّ أهمّ ما عليك معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصك من هذه الشّبكة، وهي الشّرك بالله، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه».

الدّليل على أنّ الشّرك يفسد العبادة ويحبط العمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: ٦٥]، وحبوط العمل بطلانه.

قال ابن الأثير الجزريّ في «النهاية» (١ / ٣٣١):

«وهو من قولهم: حَبِطَتِ الدَّابَّةُ حَبَطًا - بالتحريك - إذا أصابت مرعى طيباً فأفرطت في الأكل حتى تنتفخ فتموت» اهـ.

ومن الأدلّة أيضاً على أنّ الشّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨].

وأخرج مسلم في «صحيحه» [٤٦ - (٢٩٨٥)] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشّركاء عن الشّرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

قوله - رحمه الله -: «وصار صاحبه من الخالدين في النّار».

الدّليل على خلود المشرك شركاً أكبر في النّار خلود تأبيد، وأنّه لا حظّ له بمغفرة الله ورحمته ورضوانه، قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ

وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ [المائدة: ٧٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤٨﴾ [النساء: ٤٨].

فكون الشُّرك لا يغفره الله تعالى لمن مات مُصرّاً عليه غير تائب منه يدلُّ على أنَّ عمل صاحبه باطل لا قيمة له، وإن كان الشُّرك شرّاً أكبر فصاحبه من الخالدين في نار جهنّم خلود تأييد، وقد دلّت الآية على أنَّ كلَّ ذنب مهما عظم وفحش ولكنه دون الشُّرك إن لقي العبد ربّه به مصرّاً عليه غير تائب منه فهو تحت مشيئة الله تعالى، إن شاء عذّبه وإن شاء غفر له، فإن عذّبه فإنّه لا يخلد في نار جهنّم خلود الكفّار والمشرّكين فيها؛ لأجل التوحيد الذي معه، ولو كان مثقال حبة من خردل من إيمان.

وهذه عقيدة أهل السُّنّة المحضة في أصحاب الكبائر، وقد خالفها الخوارج المارقة؛ فكفّروا المسلمين بالكبيرة، وكذبوا بأحاديث الشّفاعَةِ المتواترة، وفيها شفاعته - صلّى الله عليه وسلّم -، وشفاعة النّبيين والملائكة والصّالحين بأهل الكبائر من أهل التّوحيد الخالص.

وكذلك المعتزلة الضالّة؛ فإنّهم كذبوا بأحاديث الشّفاعَةِ وحرّفوا معانيها، وقالوا: إنّ مرتكب الكبيرة إن لم يتب منها فهو في الدُّنيا في منزلة بين المنزلتين، فليس بمؤمن وليس بكافر، أمّا في الآخرة فهو خالد في نار جهنّم خلود الكفّار، فوافقوا الخوارج في جزاء مرتكب الكبيرة.

وهذه المقدّمة بنى الشيخ - رحمه الله - عليها أهمّ المهمات وأوجب الواجبات على العبد وهو: تحقيق التّوحيد، ولا يتم ذلك إلّا بمعرفة الشُّرك، من أجل الحذر منه وتركه ومجانبته، والبراءة منه ومن أهله.

فمن عرف أنَّ الشُّركَ مفسدٌ للعبادة، ومحبطٌ للعمل، وسببٌ لخلود صاحبه في النَّارِ إن لم يتب منه قبل موته؛ كان حقاً عليه أن يسارع إلى معرفة الشُّرك وأنواعه وصوره، ليحذر منه أشدَّ الحذر، ويتبرأ منه ومن أهله.

وطريق معرفة الشُّرك هو الكتاب والسُّنة، ولأهميته بيَّنه الله تعالى في كتابه العزيز أوضح بيان، ولم يدع بياناً راجعاً إلى اجتهادات الناس وآرائهم وعقولهم.

قوله - رحمه الله -: «لعلَّ الله أن يخلصك من هذه الشبكة وهي الشُّرك بالله».

فيه: أنَّ الخلاص من الشُّرك والبراءة منه إنَّما هو بتوفيق الله تعالى لعبده، فالله تعالى هو الذي يشرح صدر عبده لمعرفة الحق، ويعينه على لزومه والثبات عليه، والدَّعوة إليه، والصَّبر على الأذى فيه، وطريق تحصيل ذلك إنَّما يكون بثلاثة أمور:

الأوَّل: طلب العلم مع الإخلاص فيه.

الثاني: الخوف من الشُّرك.

الثالث: دعاء العبد ربَّه أن يجنِّبه إيَّاه كما كان الأنبياء - عليهم السلام - يدعون الله تعالى، مع أنَّهم أكمل النَّاس إيماناً، وأبعدهم عن الشُّرك كلَّه، جليَّه وخفيَّه.

قال الله تعالى ذاكراً دعاء إبراهيم - عليه السَّلام -: ﴿وَأَجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

وكان أكثر دعاء النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم -: «يا مقلبَ القلوب ثبَّت قلبي على دينك»، فقليل له في ذلك، فقال: «إنه ليس آدميٌّ إلَّا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فمن شاء أقام ومن شاء أزاغ». أخرجه أحمد والترمذي، وهو في «السَّلسلة الصَّحيحة» للشيخ الألباني - رحمه الله - (٢٠٩١).

فأوّل - وأوّل - ما يجب أن تُصَرَف فيه الأوقات وتَتَجّه إليه الهمم تعلّم الاعتقاد الصّحيح، الذي عليه مدارُ نِجاة العبد وسعادته في الدُّنيا والآخرة.

أمّا من ركن إلى قوّته العقليّة وذكائه وغفل عن توفيق الله تعالى لفهم الحقّ، وسلك غير السّبيل السّويّ في بلوغه ومعرفته - وهو سبيل الكتاب والسّنّة وما كان عليه السّلف في القرون الثلاثة الخيريّة الأولى - فإنّه يضلّ، كما حصل مع علماء الكلام الذين كانوا من أذكى النّاس في زمانهم، ولكنّ ذكاءهم قادهم إلى الضّلال؛ فإنّ التّوحيد الذي أثبتوه وعرفوه هو توحيد الرّبوبيّة، ومات كثير منهم والشّكوك تراوده، والحيرة تغلب عليه، وما يدري ماذا يعتقد في أسماء الله وصفاته.

وبعضهم تراجع عن علم الكلام قبيل وفاته بعد أن طوّل ذيوله وأشغل الناس فيه، وأوقع كثيرين في الحيرة والاضطّراب والضّلال.

قال محمّد بن عمر الرّازيّ كما نقله عنه ابن أبي العزّ الحنفيّ في «شرح العقيدة الطحاويّة» [ص (١٧٧-١٧٨) ط: وزارة الأوقاف السّعوديّة]:

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشة من جُسمونا وحاصل دنيانا أذىً ووبال

ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقال: «لقد تأملت الطُّرق الكلاميّة، والمناهج الفلسفيّة، فما رأيتها تشفي عليّاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطُّرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، وقرأ في النّفي: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ [طه: ١١٠]، ومن جرّب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي».

وقد علّق العلامة ابن القيم - رحمه الله - في «الصّواعق المرسلة» (٢/٦٦٦-٦٦٧) على حيرة الرّازي وشكوكه التي أورثها له الاشتغال بعلم الكلام، ثمّ رجوعه عنه فقال:

«فليتأمل اللّبيب ما في كلام هذا الفاضل من العبر، فإنّه لم يأت في المتأخّرين من حصّل من العلوم العقليّة ما حصّله، ووقف على نهايات أقدام العقلاء، وغايات مباحث الفضلاء، وضرب بعضها ببعض، ومخضّها أشدّ المخض، فما رآها تشفي علّة داء الجهالة، ولا تروي غلّة ظمأ الشّوق والطلب، وأنّها لم تحلّ عنه عقدة واحدة من هذه العقد الثلاث التي عقدها أرباب المعقولات على قافية القلب، فلم يستيقظ لمعرفة ذات الله ولا صفاته ولا أفعاله» اهـ.

ونقل شارح الطّحاويّة العلامة ابن أبي العزّ الحنفّي - رحمه الله - أيضًا عن محمّد ابن عبد الكريم الشّهرسّانيّ، أنّه لم يجد عند الفلاسفة والمتكلّمين إلّا الحيرة والنّدم، حيث قال:

لعمري لقد طفت المعاهد كلّها وسيّرت طرفي بين تلك المعالم
فلم أر إلّا واضعًا كفّ حائر على ذقنٍ أو قارعًا سنّ نادم
ونقل أيضًا عن أبي المعالي الجوينيّ قوله: «يا أصحابنا لا تشغلوا بالكلام، فلو عرفت أنّ الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به» اهـ.
وقال عند موته: «لقد خضتُ البحر الخضمّ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم، ودخلت في الذي هَوّني عنه، والآن فإن لم يتداركني ربّي برحمته فالويل لابن الجوينيّ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمّي، أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور» اهـ.

وقد استدللَّ الشَّيْخُ مؤلَّفُ هذه الرِّسالة المباركة بآية واحدة على ذمِّ الشُّركِ وتقييده، وأنَّه يفسد العبادة ويحبط العمل، وهي قوله تعالى في موضعين من كتابه العزيز في سورة النساء: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ ۖ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ١١٦]

وهي آية عظيمة دلالتها واضحة جدًا على ما قرَّره الشَّيْخ - رحمه الله - من أنَّ الشُّرك هو الذَّنْب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى لمن مات مصرًّا عليه غير تائب منه. وقد ذمَّ الله تعالى الشُّرك والمشرِّكين في آيات كثيرة، وشنَّ عليهم، ووصفهم بأنَّهم لا يعقلون، وأضلُّ من البهائم، وأنَّهم يتبعون الظَّنَّ ويكذبون على الله، ويدَّعون ما لا دليل عليه لتأييد شركهم، وحرَّم الله تعالى الاستغفار لهم، وحرَّم عليهم الجنَّة والخروج من النَّار، وتوعَّدهم بأسوأ جزاء وأشدَّ عقوبة في نار جهنَّم، عيادًا بالله منها ومن أهلها. قال الله تعالى: ﴿خُفَّاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١]. وقال الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [٤٣] أمَّ تَحَسَّبُ أَنْ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣-٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمْوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ۖ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ﴾ [فصلت: ٦-٧]. وقال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَىٰ قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣].

وقال الله تعالى: ﴿أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الزمر: ٤٣-٤٤].

وقال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾ [الأنعام: ١٤٨-١٤٩].

وقال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الأحقاف: ٤-٦].

وفي تشبيه الشيخ للشرك بالشبكة تنبيه على خطورته؛ فهو يصطاد قلوب العباد ويصرفها عن التوحيد كما تصطاد الشبكة فرائسها، وفيه تنبيه أيضاً على صعوبة الخلاص منه لمن وقع فيه، كصعوبة الخلاص من الشبكة، لكن مَنْ علم الله منه صدق الرغبة في الخلاص منه وأخذ بأسباب ذلك، وفقه للخلاص منه وأعانه عليه.

أمّا من ركن إلى تقليد الآباء والأجداد وقال كما قال المشركون الأوائل: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الزخرف: ٢٢]، أو ركن إلى تقليد علماء السوء الذين يهتدون من شأن الشرك، ويجيزونه بزعم أنّه من محبة الصالحين؛ فهذا لا ينجو من تلك الشبكة.

ثم بين الشيخ - رحمه الله - أنّ طريق الخلاص من شبكة الشرك إنّما يكون بتعلّم أربع قواعد، فقال: «وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه».

والقواعدُ في اللُّغة جمع قاعدة، وهي: أصل الشَّيْء وأساسه، فقواعد البيت أو البناء أُسسُه التي يقوم عليها، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ﴾ الآية [البقرة: ١٢٧].

وفي الاصطلاح هي: الأمر الكلِّي المنطبق على جميع جزئياته.

وأنواع القواعد في علوم الشريعة كثيرة، منها:

- القواعد الأصولية، وهي: أدلة الفقه الكلية، أو ما يعرف بعلم أصول الفقه.
- والقواعد الفقهية، وهي الأحكام الفقهية الكلية التي يندرج تحتها أحكام فرعية كثيرة، من أبواب الفقه المختلفة.
- والقواعد العقدية المتعلقة بالتوحيد والإيمان وأصول السنة، وهذه الرسالة تدرج تحت هذا القسم.



القاعدة الأولى

قال الشيخ - رحمه الله -:

القاعدة الأولى: أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الْكُفَّارَ الَّذِينَ قَاتَلَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مُقَرَّنُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى هُوَ الْخَالِقُ الْمُدَبِّرُ، وَأَنَّ ذَلِكَ لَمْ يَدْخُلْهُمْ فِي الْإِسْلَامِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [يونس: ٣١].

«الشرح»

هذه قاعدة عظيمة تشكّل أساساً للقواعد الثلاث التي بعدها، ومضمونها أَنَّ الاعتقاد بتوحيد الربوبية وحده لا يُدخل صاحبه في الإسلام.

فالمشركون الذين قاتلهم النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - واستحلّ دماءهم وأموالهم كانوا يقرّون بتوحيد الربوبية، ويعبدون مع الله غيره من الأنبياء والصّالحين والملائكة والجنّ وغيرهم، ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، ويقولون: ما نعبدهم إِلَّا ليقربونا إِلَى اللَّهِ زلفى، فكذبهم الله وكفرهم.

وكانوا يكذبون الرّسول - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ويكفرون برسالته، ويكفرون بالقرآن، ويكذبون بالبعث والحساب والجنّة والنّار، ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الحجّة: ٢٤]، وقال الله تعالى عنهم: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا﴾ [الفرقان: ١١]، وكانوا يقولون فيما أخبر الله عنهم: ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣].

لكنّ أبرز شركهم كان في الألوهية، أي: في توحيد العبادة، وكانت صورة متعدّدة: بالدّعاء، والسّجود، والدّبح، والنّذر، والتبرّك، والاستغاثة، والاستعانة،

والاستعاذة، والمحبة والرجاء والخوف، والرغبة والرغبة، وغير هذه الصور، لذلك حصلت الخصومة بينهم وبين النبي - صلى الله عليه وسلم - في توحيد الألوهية، ولم يقبل منهم ما كانوا يعتقدون ويزعمون أنه التوحيد ودين إبراهيم، وهو توحيد الربوبية، بل قاتلهم حتى أقرّوا بتوحيد الألوهية الذي هو توحيد الأنبياء والمرسلين، وهو دين إبراهيم الحق خلافاً لما ادّعوه عليه وحرفوه من دينه - عليه السلام -، قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: ٦٧].

أخرج البخاري في صحيحه (١٦٠١) عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما قدم، أبى أن يدخل البيت وفيه الآلهة، فأمر بها فأخرجت، فأخرجوا صورة إبراهيم وإسماعيل في أيديهما الأزلام، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «قاتلهم الله، أما والله قد علموا أنّهم لم يستقسما بها قطّ»، فدخل البيت، فكبر في نواحيه ولم يصل فيه.

لذلك نجد الشيخ - رحمه الله - مؤلف هذه الرسالة يعرف التوحيد في كتبه كلّها بأنه: إفراد الله تعالى بالعبادة، للأسباب التي ذكرناها؛ أن أكثر الشرك حاصل فيه، ولأجل الخصومة التي وقعت بين الأنبياء وأقوامهم فيه، فلم تحصل الخصومة بينهم في الربوبية؛ لأنّ غالب بني البشر يقرّون بها، إلّا الملاحدة الذين ينكرون وجود الله وينكرون أنه الخالق المالك المدبّر، مع أنّ التوحيد غير مقتصر على توحيد الألوهية، فالتوحيد هو: إفراد الله بما يختصّ به، فيشمل توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، وتوحيد والأسماء والصفات.

وتوحيد الربوبية هو: الاعتقاد بأنّ الله هو الخالق المالك المدبّر، أو هو: إفراد الله تعالى بالخلق والملك والتدبير، وهو ليس مقصوداً لذاته في القرآن، ولا في دعوة الرسل

جميعاً؛ لأن المكذبين فيه منذ الخليقة قلائل كما أسلفنا، وتقريره في كتاب الله تعالى واضح جداً، من أجل التوصل إلى الإيـان بتوحيد الأنبياء والمرسلين، وهو توحيد الألوهية، وذلك لأن توحيد الربوبية يدل على توحيد الألوهية بدلالة الالتزام، بمعنى: أن من أقر بأن الله هو الرب الخالق المالك الرّازق المحيي المميت المدبر لهذا الكون وحده؛ لزمه عقلاً وشرعاً أن يؤمن بأن الله هو المعبود الحق وحده، لأن الذي يتّصف بالخلق والرّزق والملـك والتدبير والإحياء والإماتة هو الذي يستحق أن يعبد وحده.

وتوحيد الألوهية يدل على توحيد الربوبية بدلالة التضمّن، بمعنى: أن من أفرد الله بالعبادة قولاً وعملاً واعتقاداً، فإنّه يدخل في ذلك إقراره واعتقاده ضمناً بأن الله المعبود هو الرب الخالق المالك المدبر.

فمن وحّد الله إلهاً معبوداً وحده ربّاً خالقاً، أمّا من وحّد الله ربّاً خالقاً فليس بالضرورة أن يكون موحّداً له إلهاً معبوداً.

وعلماء الكلام الذين جرّوا على الأمة شراً مستطيراً وأوقعوا الناس في حيرة وشكوك واضطراب في الاعتقاد؛ تحقيق التّوحيد عندهم غايته ومنتهاه: تحقيق توحيد الربوبية، لذلك فإنهم يعرفون الإله بقولهم: القادر على الاختراع، وليس الربّ المعبود كما هو توحيد الأنبياء والمرسلين، ويقولون: إنّ التّوحيد معناه: أن تعتقد بأن الله واحد في ذاته لا قسيم له، واحد في صفاته لا شبيه له، واحد في أفعاله لا شريك له.

والشّرك عندهم هو الشّرك في الربوبية، كمن اعتقد بوجود خالق غير الله، يخلق كخلقه، أو يشاركه الخلق والملـك والتدبير.

والشّرك في الألوهية أكثر منه في الربوبية خاصة في المشركين الأوائل، أما بعد أن ظهر تصوّف والرّفص فقد فشى الشّرك في توحيد الربوبية، ذلك وأنّ المريدين

يعتقدون في مشايخ الطرق الصوفية الذين يسمّونهم بالأولياء أنهم إذا ماتوا تفرّغوا ليتصرّفوا في الكون لأتباعهم، وهذا شرك في الربوبية، فترى المريد يتفانى في حياة شيخه في خدمته والتذلل والخضوع له، وطاعته مطلقاً، والخوف منه كخوفه من الله أو أشدّ خوفاً؛ لينال نفعه وشفاعته بعد وفاته، فيدعوه عندئذ ويسأله ويتذلل عند قبره ويخشع عند ذكر اسمه، ويقدم القرابين له في مولده، كل ذلك رجاء أن ينفعه ويشفع له ويدبرّ له أموره، نسأل الله تعالى السلامة والعافية في الدين، والثبات على التوحيد والسنة حتى الممات.

والرافضة كذلك، فهم يعتقدون بالأئمة النفع والضرر والتأثير والتدبير في الكون مع الله تعالى، وعلم الغيب، والإمام عندهم له مقام محمود، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرات هذا الكون، ومن ضروريات مذهبهم أنّ الأئمة لهم مرتبة لا يبلغها نبيّ مرسل ولا ملك مقرب، ولهم حالات تجري عليهم فيها صفات الربوبية.

فقد عقد هاشم البحرانيّ باباً خاصاً في كتابه «ينابيع المعاجز» ص (٣٥) فقال: «الباب الخامس: أنّ عندهم عليهم السلام علم ما في السماء، وما في الأرض، وعلم ما كان، وعلم ما يكون، وما يحدث بالليل والنهار، وساعة وساعة، وعندهم علم النبيين عليهم السلام وزيادة» اهـ.

وقرّر عبد الله شبر (ت ١٣٤٢ هـ)، - وهو الملقّب عند الرافضة بالحجة - في «مصاييح الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار» (٢/ ٣٩٧) أنّ من حالات الأئمة «حالة روحانية برزخية أولية، تجري عليهم فيها صفات الربوبية، وإليه أشير في الدعاء: لا فرق بينك وبينهم، إلا أنّهم عبادك المخلصون» اهـ.

ويقول الحُمَينِي في كتابه «الحكومة الإسلامية» ص(٥٢): «وثبتت الولاية والحاكمية للإمام (ع) لا تعني تجرده عن منزلته التي هي له عند الله، ولا تجعله مثل من عداه من الحكّام، فإنَّ للإمام مقامًا محمودًا، ودرجة سامية، وخلافة تكوينية تخضع لولايتها وسيطرتها جميع ذرّات هذا الكون، وإنَّ من ضروريّات مذهبنا أنْ لائمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب، ولا نبيُّ مرسل» اهـ.

وقد بيّنت الفرق بين الإمامة عند أهل السُنَّة وعند الشيعة الإمامية الاثني عشرية في المبحث الثالث من كتابي «وبل الغمام على مسألة تعدّد الحكّام وحكم طاعة الإمام» ص(٢٥-٣٣)، وفيه نقول من كتب الرافضة، تُظهر شدّة غلوهم في الإمامة، واعتقادهم الفاسد فيها.

والآيات في كتاب الله التي تبين أنَّ توحيد الربوبية وحده لا يكفي للدخول في الإسلام كثيرة، منها الآية التي استدلل بها الشيخ - رحمه الله - وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾﴾ [يونس: ٣١].

والمعنى: أنَّ الله تعالى يأمر نبيه محمّداً - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن يحتجّ على المشركين بما أقرّوا به من توحيد الربوبية، على ما أنكروه من توحيد الألوهية.

فالرزق، وملك الأسماع والأبصار، وإخراج الحي من الميت والميت من الحيّ وتدبير الأمور في العوالم كلّها من خصائص الرّبّ تبارك وتعالى، وهم يعترفون ويقرّون بأن الله منفرد بهذه الأمور، ويعتقدون أنّه لا شريك له فيها.

وموضع الشّاهد في قوله تعالى: (فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ)، فيأمر الله تعالى نبيه - صَلَّى الله عليه وسلّم - أن يلزمهم الحجة بقوله: (فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ).

قال الشيخ عبد الرحمن السَّعْدِيُّ - رحمه الله - في «تفسيره»: «ألا تتقون الله فتخلصون له العبادة وحده لا شريك له، وتخلعون ما تعبدون من دونه من الأنداد والأوثان» اهـ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١] وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ تَزَلَّ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لِيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مِّنْ خَلْقِهِمْ لِيَقُولَنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ [المؤمنون: ٨٦-٨٩]. والآيات في هذا المعنى كثيرة.

وقد ذكرنا أن سوق آيات توحيد الربوبية في القرآن غايته الاستدلال على توحيد الألوهية بدلالة الالتزام، وليست الغاية إثبات توحيد الربوبية لذاته، ولذلك فإنَّ كلَّ آية أو مجموعة آيات تقرّر الربوبية تنتهي بذكر الألوهية أو توحيد العبادة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣].

فبيّن الله تعالى في الآية استحقيقه للعبادة لما وصف به نفسه من صفات الكمال التي لا تماثلها صفات المخلوقين، فهو الذي خلق السموات والأرض وما فيها وما بينهما على عظمها واتساعها وإحكامها وإتقانها وبديع خلقها في ستة أيام، وهو

قادر على خلقهما بكلمة واحدة، ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، ولكن له - عز وجل - في كل أفعاله حكمة، وهو رفيق يحب الرفق.

واستواؤه - عز وجل - على العرش بمعنى: علوه عليه، وهو استواء يليق بجلاله بغير كيف، ولا يشبه استواء المخلوق ولا يماثله، ولا يقال: استولى؛ تحريفًا لهذه الصفة عن معناها الحق، كما هي عقيدة أهل الزيغ والأهواء من المعطلة.

وعرشه - عز وجل - هو أعظم مخلوقاته، فبدل عرشه واستواؤه عليه على عظمته تبارك وتعالى، وكونه الرب الذي لا ينازعه أحد، ولا يشاركه أحد في ملكه، ولازم ذلك كله هو إفراده بالعبادة، وإخلاص الدين له وحده دون سواه.

ثم ذكر الله - عز وجل - تدبيره للأمور كلها في العالمين العلوي والسفلي، فقال: (يُدَبِّرُ الْأُمْرَ)، وتدبير أمور العالمين وتصريفها هو فعل الرب وحده.

ثم ذكر - عز وجل - أن الشفاعة لا تكون إلا من بعد إذنه؛ لأنها له سبحانه، يملكها ولا يملكها غيره، ويأذن بها لمن يشاء، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤].

وإذنه بها لا يكون إلا لمن رضي عنه، من شافع ومشفع فيه، فلا يشفع الكفار، ولا يُشفع لهم، قال الله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣].

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ [طه: ١٠٩]، وقال في الكفار: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

ثم ختم الآية بما هي مسوقة له أصالة وهو: الأمر بعبادة الله تعالى وحده؛ لاستحقاقه - عز وجل - لها، فقال: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾

فما ذكره الله تعالى في الآية من دلائل ربوبيته وعظمته دالة كلها على أنه وحده المعبود الحق، المقصود في الحوائج، المستحق للعبادة ظاهراً وباطناً.

ونظير هذه الآية التي استدلت بها المؤلف - رحمه الله - قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۗ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الأعراف: ٥٤].

فقوله تعالى: (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ) يتضمّن أحكامه الكونية القدريّة، وقوله: (وَالْأَمْرُ) يتضمّن أحكامه الدنيّة الشرعيّة، وكونه الرّب الخالق المدبّر للأمر كلّ في العوالم كلّها يلزم العباد جميعاً أن يسلموا له بالخلق والأمر، أي: بالاعتقاد بالربوبية والألوهية، ولهذا أمر بالآية التي تليها مباشرة بإخلاص الدعاء له - عزّ وجلّ - فقال: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأعراف: ٥٥].

ومن أمثلة الاستدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [الأنعام: ٩٥].

فقوله تعالى: (ذَٰلِكُمُ اللَّهُ) أي: ذلكم ربكم المعبود، ولا معبود حقّ سواه، لأنّه هو فالق الحبّ عن الزروع والنباتات، وفالق النوى فمخرج منها صنوف الثمار، وهو يخرج الحيّ من الميت؛ فيخرج مثلاً من المنّي حيواناً، ومن البيضة فرخاً، ومن الحبّ والنوى زرعاً وشجراً، ومخرج الميت من الحيّ، كإخراجه النوى والحبّ من الأشجار والزروع، وإخراجه البيض من الطيور.

ففعله هذا هو فعل الربّ - عزّ وجلّ -، وكلّ ما يعبد من دونه لا يقدر على ذلك، وهو شيء يسير جداً من عظيم قدرته تعالى الدالة على ربوبيته.

لذلك قرّع الله تعالى المشركين في آخر الآية بقوله (فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ؟) والمعنى: فكيف تُصَرَفُونَ عن عبادة من هذا وصفه وشأنه إلى عبادة غيره من مخلوقاته، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَوةً وَلَا نُشُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقال الله تعالى في الآية التي تليها من سورة الأنعام: ﴿قَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلُ سَكَنًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝﴾ [الأنعام: ٩٦].

فمن دلائل ربوبيّته - تبارك وتعالى - وأحقّيته بالعبادة أنّه قالق الإصباح من اللّيل، كما أنّه يُغشي اللّيل النّهار، فكلمّا جاء اللّيل ذهب النّهار، وكلمّا جاء النّهار ذهب اللّيل وذلك قوله تعالى: (يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا)، فمن دلائل ربوبيّته هذا التعاقب المنتظم بين اللّيل والنّهار إلى أن تقوم السّاعة.

ومن دلائل ربوبيّته - تبارك وتعالى - أيضًا: أن جعل اللّيل سكناً؛ تسكن فيه جميع المخلوقات، فمن لم يسكن في اللّيل عارض الفطرة.

وجعل الله الشّمس والقمر حسبّاناً، تُعرف بهما الأزمنة والأوقات، فتتضببط بمعرفة الوقت مواقيتُ العبادات وأزمنةُ العقود وآجالُ المعاملات، وفي ذلك تحقيق لمصالح العباد الدّينيّة والدّنيويّة.

ثم ذكر الله تعالى بعد ذلك نعمًا عظيمة على العباد، هي من دلائل ربوبيّته، كخلق النّجوم ليُهتدى بها في ظلمات البرّ والبحر، وخلق النّاس جميعًا من نفس واحدة وهو آدم - عليه السّلام -، وإنزال الغيث الذي تنبت به صنوف الأشجار وأنواع الحبّ والثّمار ممّا يأكل النّاس والأنعام، فقال سبحانه وتعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الثُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۚ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ ۚ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأنعام: ٩٧-٩٩].

ومع أن الله تعالى أحسن لعباده غاية الإحسان؛ بأن أسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة، وسخر لهم ما في السموات والأرض، إلا أن كثيراً منهم يعبد غيره من مخلوقاته، من الجن والملائكة والصالحين وأصحاب القبور والأضرحة وغيرهم، ممن لا يخلقون شيئاً، ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً، ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يملكون في هذا الكون تدبير شيء لمصلحة من يعبدونهم، وليس فيهم من صفات الرب شيء، بل هم أنفسهم مخلوقون، وبعض هؤلاء المشركين أساء إلى الرب المنعم عليهم غاية الإساءة، وما قدره حق قدره إذ نسبوا له الولد والصاحبة، وقد أخبر الله تعالى عن حال أولئك المشركين، بعد الآيات السابقة الدالة على ربوبيته فقال:

﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ وَبَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ ۚ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾﴾ [الأنعام: ١٠٠-١٠١].

ثم ختم الله - تبارك وتعالى - آيات الربوبية بالأمر بعبادته وتوحيده ومعرفة حقه، للدلالة على أن الغاية من ذكر صفات الرب وأفعاله العظيمة الباهرة هي: إخلاص الدين له تبارك وتعالى، والقيام بعبادته، والتقرب إليه بما يحبه من صنوف الطاعات الشرعية التي بيّنها على لسان رسوله - صلى الله عليه وسلم - فقال تعالى:

﴿ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾
[الأنعام: ١٠٢].

والقسم الثالث من أقسام التوحيد هو: توحيد الأسماء والصفات.

وهو أفراد الله تعالى بما يختصُّ به من الأسماء والصفات، وقد سبق النقل عن شيخ الإسلام ابن تيمية عقيدة أهل السنة في الأسماء والصفات، وأنهم يثبتون لله تعالى ما أثبتته لنفسه وما أثبتته له رسوله - صلى الله عليه وسلم - من الأسماء والصفات، وينفون عن الله ما نفاه عن نفسه وما نفاه عنه رسوله - صلى الله عليه وسلم - من الأسماء والصفات، والإثبات يجب أن يكون بغير تكيف أو تمثيل، والنفي يجب أن يكون بغير تعطيل أو تحريف، الذي يسميه أهل البدع بالتأويل.

وتوحيد الربوبية مع توحيد الأسماء والصفات يسمّى: التوحيد العلميّ الخبريّ، فهو يشمل هذين النوعين معاً.

ومن الآيات التي جمعت بين أقسام التوحيد الثلاثة قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥]

فدليل الربوبية قوله تعالى: (رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا).

ودليل الألوهية قوله تعالى: (فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ).

ودليل الأسماء والصفات قوله تعالى: (هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا).

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - في «تفسيره»: «هل تعلم لله مسامياً ومشابهاً ومماثلاً من المخلوقين؟ وهذا استفهامٌ بمعنى النفي المعلوم بالعقل، أي: لا تعلم له مسامياً ولا مشابهاً، لأنّه الرّبُّ، وغيره مربوب، الخالق، وغيره مخلوق، الغنيُّ من جميع الوجوه، وغيره فقير بالذّات من كلّ وجه، الكامل الذي له الكمال المطلق من جميع

الوجه، وغيره ناقص ليس فيه من الكمال إلا ما أعطاه الله تعالى، فهذا برهان قاطع على أن الله هو المستحق لإفراده بالعبودية، وأنَّ عبادته حقٌّ، وعبادة ما سواه باطل، فلهذا أمر بعبادته وحده، والاصطبار لها، وعلل ذلك بكماله وانفراده بالعظمة والأسماء الحسنى» اهـ.



القاعدة الثَّانية

قال الشيخ - رحمه الله -:

القاعدة الثَّانية: أنهم يقولون: ما دعوناهم وتوجَّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبَةِ والشفاعة.

فدليل القُرْبَةِ قوله تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ ﴿٣﴾﴾ [الزمر: ٣].

ودليل الشَّفاعة قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

والشَّفاعة شفاعتان: شفاعَة منفِيَّة، وشفاعة مثبتة.

فالشَّفاعة المنفِيَّة: ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

والدَّلِيل قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

والشَّفاعة المثبتة هي: التي تطلب من الله، والشافع مكرَّم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، كما قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

«الشرح»

أولئك المشركون الذين أقرُّوا بتوحيد الرُّبوبيَّة ولم يُقرُّوا بتوحيد الألوهيَّة فحاربهم النبيُّ - صَلَّى الله عليه وسلَّم - واستحلَّ دمائهم وأموالهم عندهم شُبُهٌ وحجج داحضة، يتمسكون بها لتسويغ شركهم، منها قولهم: ما دعوناهم وتوجَّهنا إليهم وعبدناهم إلا لطلب القُرْبَةِ والشفاعة، يقصدون بذلك الأنبياء والصَّالحين والملائكة وغيرهم، الذين اتَّخذوهم أولياء لهم في شركهم، وأندادًا من دون الله - عزَّ وجلَّ -.

يقولون: نحن ما نعبد هؤلاء الأنبياء والصالحين والملائكة على أنهم يخلقون أو يرزقون أو يدبرون الأمر أو ينفعون ويضرّون، أو يحيون ويميتون؛ كلاً، وإنّا اتخذناهم وسطاء بيننا وبين الله ليقربونا إليه زلفى، وكى تُقبل أعمالنا وترتفع درجاتنا، فأعمالنا لا تصل إليه إلّا من طريق هؤلاء الأولياء، فكى يقبل الله أعمالنا ندعو الأولياء، وننذر ونذبح لهم، ونستشفع بهم إليه سبحانه وتعالى، ونطلب القربى إليه بهم؛ لأنّهم خيرٌ منّا، وأفضل وأقربُ إلى الله منّا، وعندهم أعمال وطاعات، ولهم مكانة عند الله.

والله تعالى ردّ عليهم بأنّ الدّين المقبول عنده الذي ارتضاه لنفسه - ولا دينَ حقٍّ غيره - هو الدّين الخالص، الذي لا شرك فيه، وأنّهم بفعلهم ذاك اتخذوا من دونه أولياء، أي: أشركوا مع الله غيره وناقضوا أصل إخلاص الدّين لله، ويبيّن الله تعالى أنّ قولهم هذا من الكذب، فاتخاذ الوسطاء ودعاؤهم وسؤالهم الشفاعة عند الله والقربى منه هو بحدّ ذاته عبادة يجب أن تكون خالصة له سبحانه، ثم حكم عليهم بالكفر فقال: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ)، فالله تعالى حكم بكذبهم عليه، فهو لم يجعل بينه وبين عباده وسطاء وشفعاء لقبول العبادة، وحكم بكفرهم، فإنّ من أشرك بالله تعالى فهو كافر بربه - عزّ وجلّ -.

قال الشّيخ عبد الرحمن السّعديّ - رحمه الله - في تفسير الآية السّابقة التي استدلّ بها المؤلّف - رحمه الله -: «فهؤلاء قد تركوا ما أمر الله به من الإخلاص، وتجروا على أعظم المحرّمات وهو الشّرك، وقاسوا الذي ليس كمثله شيءُ الملك العظيم بالملوك، وزعموا بعقولهم الفاسدة ورأيهم السّقيم أنّ الملوك كما أنّه لا يوصل إليهم إلّا بوجهاء وشفعاء ووزراء يرفعون إليهم حوائج رعاياهم، ويستعطفونهم عليهم، ويمهّدون لهم الأمر في ذلك؛ أنّ الله تعالى كذلك.

وهذا القياس من أفسد الأقيسة، وهو يتضمّن التسوية بين الخالق والمخلوق، مع ثبوت الفرق العظيم، عقلاً ونقلاً وفطرة؛ فإنّ الملوك إنّما احتاجوا للوساطة بينهم وبين رعاياهم لأنّهم لا يعلمون أحوالهم، فيحتاج من يُعلّمهم بأحوالهم، وربّما لا يكون في قلوبهم رحمةٌ لصاحب الحاجة، فيحتاج من يعطفه عليهم ويسترحه لهم، ويحتاجون إلى الشّفاء والوزراء، ويخافون منهم، فيقضون حوائج من توسّطوا لهم، مراعاة لهم، ومداراة لخواطرها، وهم أيضاً فقراء، قد يمنعون لما يخشون من الفقر.

وأما الرّبّ تعالى، فهو الذي أحاط علمه بظواهر الأمور وبواطنها، الذي لا يحتاج من يخبره بأحوال رعيّته وعباده، وهو تعالى أرحم الرّاحمين، وأجود الأجودين، لا يحتاج إلى أحد من خلقه يجعله راحماً لعباده، بل هو أرحم بهم من أنفسهم ووالديهم، وهو الذي يحثّهم ويدعوهم إلى الأسباب التي ينالون بها رحمته، وهو يريد من مصالحهم ما لا يريدونه لأنفسهم، وهو الغنيّ، الذي له الغنى التامّ المطلق، الذي لو اجتمع الخلق من أولهم وآخرهم في صعيد واحد فسألوه، فأعطى كلّاً منهم ما سأل وتمنّى، لم ينقصوا من غناه شيئاً، ولم ينقصوا ممّا عنده، إلّا كما ينقص البحر إذا غمس فيه المخطط، وجميع الشّفاء يخافونه، فلا يشفع منهم أحدٌ إلّا بإذنه، وله الشّفاة كلّها، فهذه الفروق يُعلّم جهل المشركين به، وسفههم العظيم، وشدّة جرائتهم عليه، ويُعلّم أيضاً الحكمة في كون الشّرك لا يغفره الله تعالى، لأنّه يتضمّن القدح في الله تعالى» الخ كلامه النّفيس - يرحمه الله تعالى - .

وفي قولهم: (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) إقرار منهم على أنفسهم بأنّهم عبدوا غير الله تعالى عندما اتخذوا الأنبياء والملائكة الصّالحين وسطاء وشفعاء، فدلّ على أنّ دعاء غير الله تعالى واتّخاذ مخلوق بين العبد وربّه يدعوه ويرجوه ويخافه ويستغيث به ويستنصر به ويستشفع به عند ربه هو عبادة لغير الله تعالى، فإذا كان الأمر

كذلك؛ فإنَّ العبادة المقبولة عند الله تعالى مبناها على التوحيد، وهو إخلاص الدين لله تعالى، والبراءة من الشُّرك في الأقوال والأعمال ظاهراً وباطناً، ثم متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند ربه في صفة تلك العبادة، وكيفيتها، وزمانها، ومكانها، دون زيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ ٥﴾ [البينة: ٥]، وقال الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ١١٠﴾ [الكهف: ١١٠].

وكذلك الآية الثانية التي تضمَّنت شبهتهم وهي قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعَتُونَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨]، يقولون: نحن ذنوبنا كثيرة ونحتاج إلى وسطاء يشفعون لنا عند الله.

فذكر الله أنَّهم أقرُّوا على أنفسهم أنَّ الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله لا ينفعونهم ولا يضرُّونهم، ومع ذلك يطلبون منهم الشفاعة عند الله تعالى.

وهذه الحُجج والشُّبه هي نفسها حجج المشركين في كلِّ زمان، كمن يعبد البدويَّ أو الرِّفاعيَّ أو المرسِّي، أو عليّاً أو زينب أو الحسين، وغيرهم من الأموات، فإنَّهم يقولون: نحن لا نعتقد أنَّهم يخلقون ويرزقون ويحيون ويميتون، ولكن لهم مكانة عند الله، فنحن ندعوهم ليقربونا من الله ويشفعوا لنا عنده.

والشفاعة التي وردت في القرآن شفاعتان:

شفاعة منفيّة؛ نفاها القرآن، وشفاعة مثبتة، أثبتها القرآن.

فمثال الشفاعة المنفيّة قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ٤٨﴾ [البقرة: ٤٨].

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِي يَوْمٌ لَا بَيْعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفْعَةٌ ۖ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٤﴾﴾ [البقرة: ٢٥٤].

وقال تعالى في الكفار: ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفْعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر: ٤٨].

وقال أيضًا فيهم: ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾﴾ [غافر: ١٨].

وقال عما يتكلمون به في النار: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَفِيعٍ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

[الشعراء: ١٠٠].

وهذه الشفاعة كما قال الشيخ - رحمه الله - منفية، نفاها القرآن ولم يثبتها، فدلَّ على أنها ليست مقبولة عند الله، لعدم تحقق شروطها، ومن الشفاعة المنفية تلك التي تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، ولا يملكه سواه، ومن الشفاعة المنفية أيضًا: الشفاعة في الكفار والمشركين يوم القيامة، فإنها لا تنفع المشرِك، وإنما ينتفع بها الموحد توحيدًا خالصًا.

والقرآن نفى الشفاعة التي تخلَّص الكفار من العذاب، فهم خالدون في نار جهنم أبدًا لا يخرجون منها، ولا يموتون فيها ولا يحيون، وتشمل الشفاعة المنفية كذلك ما كان يزعمه المشركون من اتخاذهم الأولياء والصالحين والأنداد شفعاء لهم عند الله، فنفى الله هذه الشفاعة، ويبيِّن أنها شرك وأصحابها مشركون، لا تقبلُ منهم أعمالهم، سواء التي تقرَّبوا بها إلى الله تعالى من خلال الشفعاء والوسطاء، أو التي اخلصوا فيها الدِّين لله تعالى، فإنَّ الشرك الأكبر يبطل الأعمال كلها، ويحبطها كلها.

ومثال الشفاعة المثبتة: قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:

٢٥٥]، وقوله تعالى: ﴿مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس: ٣]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفْعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وَكَمْ مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ

لَا تُغْنِي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى ﴿٨٦﴾ [النجم: ٢٦]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ﴿٨٦﴾ [الزخرف: ٨٦]، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾ ﴿١٠٩﴾ [طه: ١٠٩].

وهذه الشفاعة مثبتة، أثبتها القرآن ودلّ على أنّها هي الشفاعة المقبولة عند الله تعالى، وهي التي تطلب من الله بعد إذنه ورضاه عن الشافع والمشفوع له، وتكون لعصاة المؤمنين في هذه الأمة من أهل التوحيد.

والنبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - يشفع لأُمَّته، وله شفاعات عديدة، منها ما هو مختصّ به لا يشاركه فيه أحد وهي: شفاعته في البدء بالحساب وفصل القضاء يوم القيامة، وشفاعته في استفتاح باب الجنة، فإنّها لا تفتح لأحد قبله، وشفاعته لعمّه أبي طالب شفاعة خاصّة في تخفيف عذابه لا بإخراجه من النّار، وقد جاء هذا بأحاديث كثيرة في صحيح مسلم وغيره عن العباس عمّ النبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم -، وقد سأل عن حال أبي طالب وأنّه كان يحوط النبيّ وينصره فهل نفعه ذلك؟ فقال - صَلَّى الله عليه وسلّم -: «وجدته في غمرات من النّار فأخرجته إلى ضحضاح».

والضحضاح: ما غطّى الكعبين.

وفي صحيح مسلم عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، أنّ رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - قال: «أهّون أهل النّار عذاباً أبو طالب، وهو منتعلّ بنعلين يغلي منهما دماغه»

وأما الشّفاعة التي يشارك النبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - فيها غيره من الأنبياء والملائكة والمؤمنين فهي في أهل الكبائر من هذه الأمّة.

قال الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (٢٠ / ١٩٤):

«شفاعته في أهل الكبائر من أمته، ممن دخل النار بذنوبه وكبائر إثمه، فيخْرُجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك؛ جهلاً منهم بصحة الأحاديث، وعناداً ممن علم ذلك واستمرَّ على بدعته، وهذه الشَّفاعَة يشاركه فيها الملائكة والنَّبِيُّونَ والمؤمنون، وهذه الشَّفاعَة تتكرَّر منه - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم - أربع مرَّات ... ومن أحاديث هذا النوع: حديث أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم -: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي» رواه الإمام أحمد « اهـ.

والشَّفاعَة المثبَّتَة في القرآن لها شرطان: الإذن والرضا، لأنَّ الشَّفاعَة ملكه سبحانه وتعالى وحده، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [الزمر: ٤٤]، فلا تطلب من غيره، ولا تكون إلّا من بعد إذنه، ولا يأذن بها سبحانه إلّا لمن رضي قوله وعمله، ولا يرضى عن المشركين، فمن أذن الله له بالشفاعة فهو عنده مكرَّم بها، وهذا الشرط يتضمن أن الشَّافع لا يشفع إلّا شفاعة حقّ مبنية على علم، فلا يقول إلّا صدقاً وحقاً، ولا تكون منه الشَّفاعَة للمشركين؛ لأنّها شفاعة باطلة، وشهادة مردودة.

وكذلك إذنه - عزَّ وجلَّ - للمشفوع له، في أن يُشفع له، ورضاه سبحانه وتعالى عنه؛ رضاه عن قوله وفعله.

فهذان الشرطان أعني الإذن والرضا يتعلّقان بالشَّافع والمشفوع له. وأدلَّتْهما في الآيات السَّابِقة المثبَّتَة للشَّفاعَة.

وأحقُّ النَّاسِ بالشفاعة وأسعدُّهم بها أخلصُهم لله دينًا، فمتى كان العبد أكثر تجرُّدًا لله تعالى وتحقيقًا للتَّوحيد وتكميلًا له؛ كان أحقَّ بشفاعة النبيِّ - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم -، وهذا من فضائل تحقيق التَّوحيد ومزاياه.

فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنَّه قال: قيل: يا رسول الله، من أسعد النَّاس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال رسول الله - صَلَّى اللهُ عليه وسلَّم -: «لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدٌ أوَّل منك، لما رأيت من حرصك على الحديث، أسعد النَّاس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه». أخرجه البخاريُّ (٩٩)، (٦٥٧٠).

قال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في «تهذيب سنن أبي داود» [٣/٣١٤] ط:

عطاءات العلم]:

«وفي قوله في حديث أبي هريرة: «أسعد النَّاس بشفاعتي من قال لا إله إلا الله» سرٌّ من أسرار التَّوحيد، وهو أنَّ الشفاعة إنَّما تُنال بتجريد التَّوحيد، فمن كان أكمل توحيدًا كان أحرى بالشفاعة؛ لا أنَّها تُنال بالشُّرك بالشفيع، كما عليه أكثر المشركين، وبالله التوفيق» اهـ.



القاعدة الثالثة

قال الشيخ - رحمه الله -:

والقاعدة الثالثة: أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ظهر على أناس متفرقين في عبادتهم، منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار، ومنهم من يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - ولم يفرق بينهم، والدليل قوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

«الشرح»

هذه القاعدة الثالثة من قواعد تحقيق توحيد الألوهية، ومضمونها: أَنَّ الشُّرَكَ واحد وإن تنوعت صورته، وأهله مشركون مهما تعددت معبوداتهم، فالذين يعبدون الملائكة أو الجن، أو الأنبياء والصالحين، أو الأشجار والأحجار، أو الأصنام والأوثان، أو الشمس والقمر، كلهم في الحكم سواء؛ مشركون يجب بغضهم ومعاداتهم والبراءة منهم ومن شركهم، كما قال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءُؤُا مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿١٣١﴾﴾ [الممتحنة: ٤].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسيره»: «(وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا) يعني: وقد شرعت العداوة والبغضاء من الآن بيننا وبينكم، ما دتم على كفركم، فنحن أبداً نتبرأ منكم ونبغضكم، (حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ)، أي: إلى أن توحّدوا الله فتعبدوه وحده لا شريك له، وتخلعوا ما تعبدون معه من الأنداد والأوثان» اهـ.

وقال الله تعالى فيها حكاية عن نبيه وخليفه إبراهيم - عليه السلام - : ﴿قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَعِبَادُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: ٧٥-٨٢]. فهذا دليل آخر يوجب بغض المشركين وعداوتهم، وبغض شركهم ودينهم الباطل.

وهؤلاء المشركون الذين بُعث النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - فيهم كانوا متفرقين في معبوداتهم، لكل قبيلة أو جماعة منهم مخلوق معبود يعظمونه ويدعونه من دون الله، لكن يجمعهم الشرك، لذلك لم يفرق النبي - صَلَّى الله عليه وسلم - بينهم، فلم يفرق بين شرك وشرك، وبين معبود ومعبود، بل خاطبهم بالتوحيد جميعاً، وبين ضلالهم وشركهم جميعاً، ثم لما صارت له قدرة وشوكة قاتلهم جميعاً.

والشرك ليس محصوراً في عبادة الأشجار والأحجار والأصنام والأوثان، فهذه بعض صورته، لكنه يعم ويشمل كل عبادة لغير الله تعالى، وهذا فيه ردٌّ على من يزعم أنَّ الذي يدعو الأنبياء والصالحين ليس مشركاً كمن يدعو الأوثان والأصنام. والله تعالى أمر بالتوحيد وإخلاص الدين له، ونهى عن كل شرك أياً كانت وسيلته، وبأية طريقة فعل، فقال تعالى: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

فقوله تعالى: (شَيْئًا) نكرة في سياق النهي فتعم كل شرك.

وقال تعالى أيضاً: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ ﴿١٨﴾ [الجن: ١٨]

فقوله تعالى: (أَحَدًا) نكرة في سياق النهي فتعم كل معبود من دون الله.

واستدل الشيخ - رحمه الله - لهذه القاعدة بقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

ووجه الدلالة: أَنَّ الله تعالى أمر نبيه - صَلَّى الله عليه وسلّم - ومن معه من المؤمنين أن يقاتلوا المشركين جميعاً دون تفريق بينهم، بدلالة قوله: (وَقَاتِلُوهُمْ) فهو عامٌّ في كلِّ المشركين.

وغاية ذلك القتال الذي أمر الله تعالى به نبيه - صَلَّى الله عليه وسلّم - أمران:
الأوّل: حتى لا تكون فتنة، والفتنة هي الشُّرك، أي: حتى يزول الشُّرك، وسمّى الشرك فتنة لما فيه من الاختلاف والتنازع، فشرع الله تعالى لنبيه قتال المشركين الذين يحولون بين المسلمين وتبليغ دين الله تعالى، ويمنعون من تحت أيديهم من معرفة التَّوحيد ودين الله الحق، فيكونون بذلك لهم فتنة.

قال عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما -: «قد فعلنا على عهد رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - إذ كان الإسلام قليلاً، فكان الرَّجل يفتن في دينه؛ إمّا يقتلوه، وإمّا يوثقوه، حتى كثر الإسلام فلم تكن فتنة» رواه البخاري (٤٦٥٠).

وقال سعيد بن جبير: خرج علينا - أو: إلينا - ابن عمر - رضي الله عنهما -، فقال رجل: كيف ترى في قتال الفتنة؟ فقال: «وهل تدري ما الفتنة؟ كان محمّد صَلَّى الله عليه وسلّم يقاتل المشركين، وكان الدُّخول عليهم فتنة، وليس بقتالكم على الملك». رواه البخاري (٤٦٥١).

الثاني: أن يكون الدِّينُ كُلُّهُ لله، فهذه هي الغاية الثانية للقتال، وهي تعبيد النَّاسَ لربِّهم، وأن يخلصوا الدِّينَ لله تعالى ويتركوا الشُّرك.

وهذا القتال يسمى عند أهل العلم قتال الطلب، ولوجوبه شروط إذا لم تجتمع كلها فلا يشرع، ويسقط وجوبه حينئذ:
أولها: القدرة عليه.

ثانيها: إذن الإمام، وهو ولي الأمر أو رأس الدولة، فالذي يدبر جهاد الطلب هو الإمام.

ثالثها: أن يكون قتالاً للغايتين السابقتين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وهذا يتضمن نقاء الرؤية التي يجاهد تحتها ووضوحها، فليست رؤية جماعة حزبية، ولا فرقة بدعية، ولا مجموعة قبلية، وإنما رؤية توحيد وسنة يرفعها ولي الأمر.

وأخرج مسلم في «صحيحه» [٥٣- ١٨٤٨] عن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات، مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عمية، يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أممي، يضرب برها وفاجرها، ولا يتحاش من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده، فليس مني ولست منه».

ثم شرع الشيخ - رحمه الله - بذكر بعض الأدلة على ما ذكر من كثرة معبودات المشركين في زمان النبي - صلى الله عليه وسلم -، وأن النبي - صلى الله عليه وسلم - عاملهم جميعاً مشركين، وإن اختلفت معبوداتهم، ولم يفرق بين شرك وشرك، أو بين شرك وآخر.

قال الشيخ - رحمه الله -: «ودليل الشمس والقمر قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]».

الليل والنهار والشمس والقمر آيات مخلوقة، فلا يجوز أن تعبد، بل الواجب عبادة خالق هذه الآيات ومدبرها وهو الله لأ، ولا يجوز أن يسجد للشمس والقمر؛ فإنَّ السُّجود لهما شرك أكبر.

والسُّجود عبادة من أجلِّ العبادات، وأقرب ما يكون العبد من ربِّه وهو ساجد، وهو دلالة عبوديَّة العبد لربه وخضوعه له وتذلُّله بين يديه، ولذلك لا يجوز أن يصرف لغير الله، والسُّجود لغير الله شرك أكبر مناف للعبودية ومناقض للتوحيد، للآية التي استدل بها المؤلف وقال الله تعالى أيضًا: ﴿فَأَسْجُدُوا لِلَّهِ وَأَعْبُدُوا ۝٦٢﴾ [النجم: ٦٢].

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - عن النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - قال: «ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحدٌ ينبغي أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، لما عظم الله عليها من حقِّه».

أخرجه ابن حبان في صحيحه (٤١٦٢)، وهو حديث صحيح له شواهد كثيرة، خرَّجها الشيخ الألباني - رحمه الله - في «إرواء الغليل» (١٩٩٨).

وأخرجه الإمام الترمذي (١١٥٩) بلفظ: «لو كنت أمرًا أحدًا أن يسجد لأحدٍ لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها».

وقال الترمذي عقبه: «وفي الباب عن معاذ بن جبل، وسراقة بن مالك بن جُعشم، وعائشة، وابن عباس، وعبد الله بن أبي أوفى، وطلق بن عليٍّ، وأم سلمة، وأنس، وابن عمر. حديث أبي هريرة حديثٌ حسنٌ غريبٌ من هذا الوجه، من حديث حمَّد بن عمرو، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة» اهـ.

وأخرج النسائي وأحمد وغيرهما وصححه الشيخ الألباني في «الإرواء» عن أنس قال: قال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، من عظم حقه عليها» وعن عبد الله بن أبي أوفى قال: لما قدم معاذ من الشام سجد للنبي صَلَّى الله عليه وسلّم -، قال: ما هذا يا معاذ؟! قال: أتيت الشام فوافيتهم يسجدون لأساقفتهم وبطارقتهم، فوددت في نفسي أن نفعل ذلك بك، فقال رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - : «فلا تفعلوا، فإنّي لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لغير الله، لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها، والذي نفس محمد بيده لا تؤدّي المرأة حقَّ ربّها حتى تؤدّي حقَّ زوجها، ولو سألتها نفسها وهى على قتب لم تمنعه».

أخرجه ابن ماجه (١٨٥٣)، وابن حبان (١٢٩٠)، والبيهقي (٢٩٢ / ٧)، وهو صحيح بشواهده كما في «الإرواء» (١٩٩٨).

وعن قيس بن سعد قال: «أتيت الحيرة، فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فقلت: رسول الله أحقُّ أن يُسجد له، قال: فأتيت النبي - صَلَّى الله عليه وسلّم -، فقلت: إنّي أتيت الحيرة فرأيتهم يسجدون لمرزبان لهم، فأنت يا رسول الله أحقُّ أن نسجد لك، قال: «أرأيت لو مررت بقبري أكنت تسجد له؟» قال: قلت: لا، قال: «فلا تفعلوا، لو كنت امرأةً أحدًا أن يسجد لأحد، لأمرت النساء أن يسجدن لأزواجهن، لما جعل الله لهم عليهنَّ من الحقّ».

أخرجه أبو داود (٢١٤٠)، والحاكم (١٨٧ / ٢)، والبيهقي (٢٩١ / ٧)، من طريق شريك، عن حصين، عن الشعبي، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

وشريك القاضي سيء الحفظ، لكنَّ الحديث يصحُّ بما قبله.

ولفظ «ما ينبغي» في حديث أبي هريرة السَّابِق ونحوه إنّما يستعمل في لغة الشَّرْع للدَّلالة على الأمر الذي هو في غاية الامتناع، وفي المحذور شرعاً أو قدراً، وفي المستحيل الممتنع، كما بيّن ذلك العلّامة ابن القيم - رحمه الله - في «إعلام الموقعين» [٩٠ / ١] ط: عطاءات العلم،

ومن شواهد في كتاب الله قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [مريم: ٩٢]. وقوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَعَابَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا﴾ [الفرقان: ١٨].

وقال العلّامة ابن القيم أيضاً في «بدائع الفوائد» [٣ / ٤] ط: دار الكتاب العربي: «ويستفاد التحريم من النهي، والتّصريح بالتحريم، والحظر، والوعيد على الفعل، وذمّ الفاعل، وإيجاب الكفارة بالفعل، وقوله: «لا ينبغي»؛ فإنّها في لغة القرآن والرّسول - صلى الله عليه وسلّم - للمنع عقلاً أو شرعاً... الخ. ومن شواهد في السُّنة قوله - صلى الله عليه وسلّم - : «إنّه لا ينبغي لنبى أن تكون له خائنة الأعين»، أخرجه أبو داود (٢٦٨٣)، وقال الشَّيخ الألباني في صحيح سنن أبي داود (٢٤٠٥): «حديث صحيح، وهو على شرط مسلم؛ كما قال الحاكم، ووافقه الذهبي».

واقصر في الآية (لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ) على ذكر السُّجود؛ لأنّه أخصّ شيء في العبادة، وأبلغ شيء في الخضوع والتّذلّل.

ومن الدَّرَائِع والوسائل التي سدّ الشَّرْع بابها حماية لجناب التّوحيد: الصَّلَاة والسُّجود في الأوقات التي يعظّم المشركون فيها الشَّمس ويسجدون لها، عند شروقها

وعند غروبها، فحرّم الإسلام الصّلاة في هذين الوقتين لكونه ذريعةً إلى التّشبه بعباد الشّمس، الذين يسجدون لها في هاتين الحالتين.

فعن أبي سعيد الخدريّ - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - يقول: «لا صلاة بعد الصّبح حتّى تطلع الشّمس، ولا صلاة بعد العصر حتّى تغيب الشّمس». أخرجه البخاريّ (٥٨٦)، ومسلم [٢٨٨ - (٨٢٧)]
ولفظ مسلم: «لا صلاة بعد صلاة العصر حتّى تغرب الشّمس، ولا صلاة بعد صلاة الفجر حتّى تطلع الشّمس».

وأخرج مسلم [٢٩٣ - (٨٣١)] عن عقبة بن عامر - رضي الله عنه - قال: «ثلاث ساعات كان رسول الله - صلّى الله عليه وسلّم - ينهانا أن نصليّ فيهنّ، أو أن نقبر فيهنّ موتانا: حين تطلع الشّمس بازغةً حتّى ترتفع، وحين يقوم قائم الظّهيرة حتّى تزول الشّمس، وحين تتضيف الشّمس للغروب».

وأخرج مسلم [١٧٣ - (٦١٢)] أيضًا من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه - عن النّبيّ - صلّى الله عليه وسلّم - قال: «وقت صلاة الصّبح من طلوع الفجر ما لم تطلع الشّمس، فإذا طلعت الشّمس فأمسك عن الصّلاة، فإنّها تطلع بين قرنيّ شيطان».

وقال النّبي - صلّى الله عليه وسلّم - لعمر بن عبّسة السّلمي: «صلّ صلاة الصّبح، ثمّ أفصر عن الصّلاة حتّى تطلع الشّمس حتّى ترتفع، فإنّها تطلع حين تطلع بين قرنيّ شيطان، وحينئذ يسجد لها الكفار، ثمّ صلّ فإنّ الصّلاة مشهودةٌ محضورةٌ حتّى يستقلّ الظلّ بالرمح، ثمّ أفصر عن الصّلاة، فإنّ حينئذ تسجر جهنّم، فإذا أقبل الفیء فصلّ، فإنّ الصّلاة مشهودةٌ محضورةٌ حتّى تصليّ العصر، ثمّ أفصر عن الصّلاة حتّى

تغرب الشَّمْسُ، فإنَّها تغرب بين قرنيَّ شيطانٍ، وحينئذ يسجد لها الكفَّار» رواه مسلم [٢٩٤ - (٨٣٢)].

وقوله: «فإنَّها تطلع بين قرنيَّ شيطان» على حقيقة، ومعناه: أنَّه يُدني رأسه إلى الشَّمْس في هذا الوقت ليكون الكفَّار السَّاجدون للشَّمْس كالسَّاجدين له.
وقال العلامة ابن القيم - رحمه الله - في «إغاثة اللِّهفان من مصايد الشَّيطان» (١/ ٣٦٢ ط: محمد حامد الفقي):

«ونهى عن الصَّلاة عند طلوع الشَّمْس وعند غروبها؛ لكون هذين الوقتين وقت سجود الكفَّار للشَّمْس، ففي الصَّلاة نوع تشبُّه بهم في الظاهر، وذلك ذريعة إلى الموافقة والمُشابهة في الباطن، وأكَّد كذلك بالنَّهى عن الصَّلاة بعد العصر وبعد الفجر، وإن لم يحضر وقت سجود الكفار للشَّمْس؛ مبالغة في هذا المقصود، وحماية لجانب التَّوحيد، وسدًّا لذريعة الشُّرك بكلِّ ممكن» اهـ.

وقد امتنَّ الله تعالى على عباده بخلق الشَّمْس والقمر وتسخيرهما لهم؛ لما فيهما من المنافع الدِّنيَّة والدُّنيويَّة، قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٩].

فواجب على العباد أن يعرفوا قدر هاتين النِّعمتين والآيتين العظيمنتين، وأن يعرفوا عظمة الله تعالى الذي سَخَّرهما وقدرته، إذ خلق هذه المخلوقات العظيمة وسَخَّرها وجعلها مؤتمرة بأمره، فيشكروه ويعبدوه؛ لا أن يعبدوها وهي مخلوقات مثلهم، لا تملك لهم نفعاً ولا ضرراً ولا موتاً ولا حياةً ولا نشوراً.

فخلق الشَّمْس والقمر من آيات ربوبيَّة الله تعالى، الدَّالَّة على ما يتَّصف به من صفات الكمال، الموجبة على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً.

قال الشيخ - رحمه الله - : «ودليل الملائكة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا

الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٨٠]».

فهناك من المشركين مَنْ عبد الملائكة والأنبياء، ومعنى الآية باعتبار الآية التي قبلها من سورة آل عمران: أَنَّ مَنْ آتاه الله تعالى الكتاب والحكم والنبوة لا يدعو الناس إلى عبادة نفسه، ولا يأمرهم بعبادة الملائكة والنبيين، ولا اتخاذهم أرباباً من دون الله، ولكن يأمرهم بالتوحيد وعبادة الله وحده، وإخلاص الدين له دون سواه.

قال الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيِّنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ﴾ [٧٩] وَلَا يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠]

قال الشيخ: «ودليل الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَعْيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ءَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ فُلْتُهُ، فَقَدْ عَلِمْتَهُ، تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦]».

في الآية دليل على أَنَّ عبادة الأنبياء كعيسى - عليه السلام - والصالحين كمریم الصديقة شرك كعبادة الأصنام.

وفيهما ذمُّ النَّصَارَى الذين غَلَوْا في دينهم وأشركوا شركاً قبيحاً جداً باتخاذهم عيسى وأمه إلهين من دون الله، ونحن مأمورون باجتنباب سبيلهم، ومفارقة سننهم، والحذر من أسباب كفرهم وضلالهم.

وقد برأ الله تعالى في هذه الآية عيسى - عليه السلام - من شرك النَّصَارَى وكفرهم وغلوهم به، وبيَّن أَنَّ عيسى - عليه السلام - دعاهم إلى التوحيد الخالص

في الربوبية ولم يدعهم إلى التثليث، ودعاهم إلى التوحيد الخالص في الألوهية، ولم يدعهم إلى الشرك باتخاذهم معبودًا من دون الله، بل قال لهم: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ﴾.

قال الله تعالى فيما حكاه عن عيسى - عليه السلام - مبينًا دعوته إلى التوحيد غيره من الأنبياء والمرسلين: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقد حكم الله تعالى بكفر النصارى في كتابه فقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى أيضًا: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [المائدة: ٧٣].

وكما حصل الغلو في عيسى - عليه السلام - وأمه الصديقة مريم، حصل الغلو في النبي - صلى الله عليه وسلم - من أصحاب الطرق الصوفية الذين يعتقدون أن النبي - صلى الله عليه وسلم - يخرج من قبره ويحضر مجالس ذكرهم، ويقضي الحوائج ويعلم أحوال الناس، لذلك فهم يدعونه ويسألونه ويستغيثون به ويرجون نفعه وشفاعته والقربى من الله به.

ومن ذلك الغلو القبيح والشرك الصريح ما جاء في «بردة» محمد بن سعيد البوصيري الصوفي الشاذلي «ت ٦٩٦ هـ» إذ قال فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي فضلاً وإلا فقل يا زلّة القدم

فإنّ من جودك الدنيا وضّرتها ومن علومك علم اللّوح والقلم

جاء في كتاب «مصباح الظّلام في الرّدّ على من كذّب الشّيخ الإمام ونسبه إلى تكفير أهل الإيمان والإسلام» للشّيخ عبد اللطيف بن عبد الرّحمن بن حسن بن محمّد بن عبد الوهّاب - رحمه الله - «ت ١٢٩٣ هـ» (٢ / ٣١٦) ما نصّه:

«فأين قوله هذا ممّا دلّ عليه كتاب الله وسنّة رسوله - صلّى الله عليه وسلّم - من وجوب إسلام الوجوه له تعالى، والإنابة إليه، ووجوب اتخاذه تعالى ملجأً، ومفرّجاً، ومعاذاً، وملاذاً عند الشّدائد والمهمّات؟

قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام: ٤٠].

ففي هذه الآية أنّهم يلجؤون إليه، ويُفردونه بالدّعاء إن أتاهم العذاب أو أتتهم السّاعة، واحتجّ بذلك على وجوب إفراده بالدّعاء في حال الرّخاء وفي جميع الحالات، فكيف ترى بمن أعدّ غير الله لشدّته وهول السّاعة وكرهاها؟ كما في أبيات البوصيريّ، وإذا اقترن بذلك نفي التعلّق والرّجاء والتوكّل في ذلك عن غير الرّسول - صلّى الله عليه وسلّم -، وأضاف المتكلّم إلى هذا إثبات عموم العلم، وإحاطته بالكلّيّات والجزئيّات، وأنّ الدنيا والآخرة حصلتا وكانتا عن جوده وإحسانه، ومعلوم أنّ هذا يدخل فيه كلّ تدبير وتأثير وتقدير وتيسير، فأى فرد يبقى لله؟ وأي شيء اختصّ به؟ فافهم ما في هذه الأبيات من منافاة مقتضى الرّسالة، وصريح الآيات» اهـ.

وقال البوصيريّ في «البردة» أيضاً:

ولن يضيق رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلّى باسم منتقم

المعنى: أَنَّهُ يَطْلُبُ الشَّفَاعَةَ مِنَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّ لَهُ جَاهًا وَمَنْزِلَةً عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَجَاهَهُ لِنِ يَضِيقُ بِالْبُوصِيرِيِّ، فَتَشْمَلُهُ شَفَاعَتُهُ.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَنْزِلَةَ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى مَنْزِلَةٌ عَظِيمَةٌ، لَكِنَّ الشَّفَاعَةَ لَا تَطْلُبُ مِنْهُ؛ لِأَنَّهُ لَا يَمْلِكُهَا حَتَّى يَبْذُلَهَا لِمَنْ يَرِيدُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعًا﴾، وَإِنَّمَا تَكُونُ الشَّفَاعَةُ لَهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَلِغَيْرِهِ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالصَّالِحِينَ بَعْدَ الْإِذْنِ وَالرَّضَا، كَمَا سَبَقَ بَيَانُهُ، وَقَدْ صَحَّتِ الْأَحَادِيثُ بِأَنَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يَسْجُدُ عِنْدَ الْعَرْشِ، وَيُحْمَدُ اللَّهُ تَعَالَى وَيُثْنِي عَلَيْهِ، ثُمَّ يُؤْذَنُ لَهُ وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ: يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَسَلْ تَعْطِهِ، وَاشْفَعْ تَشْفَعْ، فَيَسْأَلُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - الشَّفَاعَةَ لِأَهْلِ التَّوْحِيدِ مِنْ أُمَّتِهِ مِمَّنْ دَخَلُوا النَّارَ، فَيُؤْذَنُ لَهُ، وَيَتَكَرَّرُ ذَلِكَ مِنْهُ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا، وَفِي كُلِّ مَرَّةٍ يُؤْذَنُ لَهُ، وَيُحَدُّ لَهُ حَدٌّ فِي الشَّفَاعَةِ لَا يَتَعَدَّاهُ.

لَأَجْلِ هَذَا فَإِنَّ طَلِبَ الشَّفَاعَةِ مِمَّنْ لَا يَمْلِكُهَا وَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا كَطَلِبِهَا مِنَ الْأَمْوَاتِ شَرِكٌ أَكْبَرُ مِنْ جَنْسِ شَرِكِ الْمُشْرِكِينَ الْأَوَائِلِ، الَّذِينَ طَلَبُوا الْقُرْبَى مِنَ اللَّهِ بِالصَّالِحِينَ، وَطَلَبُوا شَفَاعَتَهُمْ لِمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ.

أَمَّا مَنْ أَخْلَصَ دِينَهُ لِلَّهِ فَإِنَّهُ يَطْلُبُ الشَّفَاعَةَ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ، وَيَسْأَلُ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَشْفَعَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

وَقَالَ الْبُوصِيرِيُّ فِي «الْبُرْدَةِ» مَعْتَقِدًا الْإِسْتِجَارَةَ وَالِاسْتِغَاثَةَ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَمَقَرَّرًا أَنَّهُ يَسْتَجِيرُ وَيَسْتَغِيثُ بِالنَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي الشَّدَائِدِ:

مَا سَامَنِي الدَّهْرُ ضَيْمًا وَاسْتَجَرْتُ بِهِ إِلَّا وَنَلْتُ جَوَارًا مِنْهُ لَمْ يُضْمَ
وَلَا التَّمَسْتُ غِنَى الدَّارَيْنِ مِنْ يَدِهِ إِلَّا التَّمَسْتُ النَّدَى مِنْ خَيْرِ مُسْتَلَمٍ

يقرّر في هذين البيتين معتقده الشّركيّ الذي صار كثير من المسلمين الجاهلين للتوحيد والعقيدة الصحيحة يرّدونه في الموالد البدعيّة وغيرها، فهو يستغيث بالنبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - عندما يسيّمه الدهر ضيماً، أي: ظلماً، وعند الشدة والأقدار المؤلّة التي تحصل في عمره، ويقول: إنّه إذا استغاث بالنبيّ - صَلَّى الله عليه وسلّم - عند الشدّة نال جواره وحصل مقصوده، ولو أنّه طلب غنى الدارين لحصله منه.

وهذا لا شكّ شرك أكبر؛ لأنّ دعاء الأموات والاستجارة والاستغاثة بهم شرك أكبر، فهم لا يقدرّون على شيء؛ فلا يجيرون من طلب جوارهم، ولا يغيثون من طلب غوثهم، ولا يجيئون من دعاهم، قال الله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَتُنْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٦﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ غَفِلُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الأحقاف: ٤-٦].

أخرج البخاريّ في صحيحه (٣٤٤٥) عن عمر - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلّم - يقول: «لا تُطْرُونِي كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنّنا أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله».

هذا نهي عن المغالاة في مدحه - صَلَّى الله عليه وسلّم -، فكيف بالمغالاة التي فيها الشّرْك الأكبر الصّريح؟

قال الشيخ - رحمه الله -: «ودليل الصّالحين قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا ﴿٥٧﴾﴾ [الإسراء: ٥٧]».

والمعنى: هؤلاء الذي يُدْعَوْنَ من دون الله من الصّالحين ويُرجى نفعُهم وترجى شفاعتهم هم أنفسهم يبتغون القُربى من الله تعالى بالإيمان به والعمل الصّالح، ويتنافسون فيما يقربهم إلى الله تعالى زُلْفى، ويرجون رحمته ويخافون عذابه، فهم عباد لله وخلق من خلقه سبحانه، ولا يملكون لأحد قُربى ولا زُلْفى إلى الله ولا شفاعته، فما دام هؤلاء الصّالحون مفتقرون إلى الله ومحتاجون إلى رحمته ويخافون عذابه، ولا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ولا نشوراً، ولا يملكون لأحد نفعاً ولا ضرراً، فكيف يُعبدون من دون الله وترجى منهم الشّفاعته، أم كيف يستغاث بهم وهم أموات فيما لا يقدر على الغوث منه إلّا الله، ويُدْعَوْنَ وهم أموات فيما لا يقدر على إجابته إلّا الله، ويطلب منهم ما هو من خصائص الله تعالى، كتفريج الكرب وجلب المنافع ودفع المضار؟!

قال الشّيخ - رحمه الله - : «ودليل الأشجار والأحجار قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۖ وَمَنْوَةَ الثَّالِثَةَ الْآخِرَىٰ﴾ [النجم: ١٩ - ٢٠] .»

يقول الله تعالى منكرًا على المشركين عبادتهم غيره، وموبّخاً لهم ومظهرًا سخافة عقولهم: أخبروني عن هذه الأصنام والأشجار؛ اللّات والعزّى ومناة التي تعبدونها؟ هل تملك لكم نفعاً أو تدفع عنكم ضرراً؟ هل تخلق وتحيي وتميت وترزق؟ ماذا صنعت لكم حتى تعبدوها؟

واللّات؛ زعم المشركون أنّه مشتقٌّ من الله، وأنّه متّصف بصفة الألوهيّة تحريفاً لاسمه سبحانه وإشراكاً به، وهو صخرة كبيرة كان يجلس عليها رجلٌ يلتُ السُّويق للحجيج في الطائف، فلمّا مات عكفوا عليها ونصبوا عليها السُّتور وعظّموها وعبدوها.

والعزَّى زعموا أنَّه مشتقُّ من اسم الله العزيز، وهي أشجار كانوا يعكفون عليها ويعظمونها ويعبدونها، وفيها شيطانة تكلمهم فيظنون أنَّ الأشجار هي التي تكلمهم. ومناة كذلك اشتقُّوها من اسم الله المنان، كذباً على الله وتحريفاً لأسماؤه، وهو صنم أو مكان لخزاعة والأوس والخزرج بين مكَّة والمدينة، كانوا يعكفون عليه ويحرمون منه بالحجِّ.

وهذه الثلاثة هي أكبر أصنام العرب وأشهرها، وقد أرسل النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - من الصحابة من هدم تلك الأصنام، وقطع الأشجار.

قال الشيخ - رحمه الله -: «وحدَّث أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - قال: «خرجنا مع النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم - إلى حُتَيْن ونحن حُدَثَاءُ عَهْدٍ بكفر، وللمشركين سِدْرَةٌ يعكفون عندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذاتُ أنواط، فمررنا بِسِدْرَةِ فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذاتَ أنواط، كما لهم ذاتُ أنواط» الحديث».

حديث أبي واقد الليثي - رضي الله عنه - حديث صحيح، أخرجه الإمام أحمد (٢١٨٩٧، ٢١٩٠٠)، والترمذي (٢١٨٠) وقال: «حديث حسن صحيح»، وابن حِبَّان (٦٧٠٢)، وصحَّحه الشيخ الألباني في «التعليقات الحسان على صحيح ابن حِبَّان» (٦٦٦٧)، وفي «جلباب المرأة المسلمة» ص (٢٠٢).

وتتمة الحديث: فقال النبي - صَلَّى الله عليه وسلَّم -: «سبحان الله»، وفي رواية: «الله أكبر»، «هذا كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم».

ومضمونه أنَّ المشركين اتخذوا شجرة يعكفون عليها، ويتبركون بها، ويعلقون عليها أسلحتهم، ويعتقدون أنَّ تلك الأسلحة تنال من الشجرة البركة والقوة والشدة فتصبح ذات بأس، فهم يعتقدون في تلك الشجرة جلب المنافع ودفع المضار والتأثير،

وهذا شرك في الربوبية، فيتدللون ويخضعون ويخشعون لها، وهذا شرك في الألوهية، فجمعوا بين الشرك في الربوبية والشرك في الألوهية.

ولما طلب بعض الصحابة ممن هم حدثاء عهد بشرك أن يجعل لهم النبي - صلى الله عليه وسلم - شجرة يعلقون عليها أسلحتهم كما للمشركين شجرة يعلقون عليها أسلحتهم؛ زجرهم وأنكر عليهم وقال: «الله أكبر»؛ استعظاماً لمقاتلتهم، وفي رواية قال: «سبحان الله»! تنزيهاً لله عن الشرك، وتعجباً مما طلبوه، ثم قال: «هذا كما قال قوم موسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨]. والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم».

والسنن والسنن - في اللغة: جمع سنة - هي: السبل والطرق التي يسلكها الناس ويقتدي بعضهم ببعض فيها حسنة كانت أو قبيحة، والمقصود في الحديث السنن القبيحة المذمومة، كالشرك والبدع والمعاصي، والمعنى: ما حملكم على ما طلبتم إلا تقليد الأولين وأتباع سنن المشركين.

قال الشيخ محمد بن عبد الرحمن المباركفوري - رحمه الله - في «تحفة الأحوذى» (٦ / ٣٤٠): «والسنة لغة: الطريقة، حسنة كانت أو سيئة، والمراد هنا طريقة أهل الهواء والبدع التي ابتدعوها من تلقاء أنفسهم بعد أنبيائهم، من تغيير دينهم وتحريف كتابهم، كما أتى على بني إسرائيل، حذو النعل بالنعل» اهـ.

وقد أنكر موسى - عليه السلام - على قومه مقاتلتهم تلك: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١٣٨) إِنَّ هَؤُلَاءِ مُتَّبِعُونَ مَا هَدَوْا فَلَا مَحْصِلَ فِيهِ وَلَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾ [الأعراف: ١٣٨-١٤٠].

فالأنبياء يبينون الدين الخالص، ولا يقرؤون أحداً على باطل، فانتهى أصحاب موسى - عليه السلام - عن مقاتلتهم تلك، ولو فعلوا لأشركوا، وكذلك لو اتخذ

الصَّحَابَةُ الَّذِينَ قَالُوا تِلْكَ الْمَقَالَةُ شَجَرَةٌ يَتَبَرَّكُونَ بِهَا كَمَا فَعَلَ الْمُشْرِكُونَ؛ لِأَشْرَكُوا، وَلَكِنَّهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا، فَوَقَاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ الشَّرِّ لَمَّا أَطَاعُوا النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَتَبَيَّنَ أَنَّهُمْ مَا قَالُوا ذَلِكَ إِلَّا عَنْ جَهْلٍ بِالْحُكْمِ، لَا رَغْبَةً بِالشَّرِّ، أَوْ اعْتِقَادًا أَوْ مَحَبَّةً لَهُ.

وإِنَّمَا سَاقَ الْمُؤَلِّفُ هَذِينَ الدَّلِيلَيْنِ لِيَبَيَّنَ أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَنْ كَانَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ وَالْأَحْجَارَ وَالْأَشْجَارَ، وَفِي زَمَانِ الشَّيْخِ وَزَمَانِنَا هَذَا كَثِيرُونَ مِمَّنْ يَنْتَسِبُونَ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَيَتَبَرَّكُونَ بِأَحْجَارِ الْأَضْرَحَةِ وَالْمَقَامَاتِ وَالْأَشْجَارِ وَبِذَوَاتِ الْأَشْخَاصِ وَبِأَثَارِهِمْ، وَهُوَ شَرِّكَ كَشْرِكَ الْأَوَّلِينَ.

فَمَنْ طَلَبَ شَجَرَةً أَوْ قَبْرًا أَوْ مَقَامًا أَوْ وَثَنًا لِيَتَبَرَّكَ بِهِ، أَوْ يَدْعُوهُ، أَوْ يَسْتَغِيثَ بِهِ، أَوْ يَنْذِرَ لَهُ، فَهُوَ كَمَنْ طَلَبَ إِلَهًا يَعْبُدُهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ، لِأَنَّهُ مِثْلُ مَنْ قَالَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾، وَاللَّهُ الْمَوْفِقُ.



القاعدة الرَّابِعة

قال الشَّيْخ - رحمه الله -:

القاعدة الرَّابِعة: أَنَّ مشرِكِي زماننا أغلظ شركاً من الأوَّلِينَ؛ لأنَّ الأوَّلِينَ يشركون في الرِّخاء ويخلصون في الشِّدَّة، ومُشركو زماننا شركهم دائماً في الرِّخاء والشِّدَّة. والدَّلِيل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. تَمَّتْ، وصَلَّى اللهُ على مُحَمَّد وآله وصحبه وسلَّم.

«الشرح»

مضمون هذه القاعدة أَنَّ المشركين في زمان الشَّيْخ - رحمه الله - وبعد زمانه في هذه الأُمَّة أغلظ شركاً من المشركين الصُّرَحَاء الأوائل في الجاهليَّة، وتعليل ذلك أَنَّ المشركين الأوائل الذين عبدوا الأنبياء والصَّالحين والجنَّ والملائكة والأشجار والأحجار، كانوا يدعونهم ويعبدونهم في الرِّخاء والسَّعة وفي حال النِّعمة، ويخلصون لله الدُّعاء والعبادة في الشِّدَّة والكُرب، أمَّا مشركو زمان الشَّيْخ ومن جاء بعدهم فيشركون في الرِّخاء والشِّدَّة، بل تعلُّقهم بمن يعبدون في الشِّدَّة والكُرب وعند وقوع البلاء والمكروه أشدُّ من تعلُّقهم بهم في الرِّخاء، فترى الواحد منهم عند الكُرب والحاجة وحصول المكروه يدعو فيقول: يا عليّ، يا حسين، يا سيِّدي عبد القادر، يا بدويّ، يا عبَّاس، يا عُجيل، يا ابن علوان، يا جيلانيّ وهكذا.

قال الشَّيْخ مُحَمَّد أمان الجاميُّ - رحمه الله - في «شرح القواعد الأربع» ص (٩٦): «رَأَيْتُ بَعْينِيَّ وسمعتُ بأذنيَّ، كدنا على الغرق في بحر جدَّة، وكانت السَّفينة تضطَّرب، وإذا اضطَّربت خاف الرُّكَّاب، والكلُّ يَجْأَر، لم نسمع أحداً يَجْأَر باسم الله (يا الله)، وإنَّما: يا أهل الله، يا ابن علوان، يا شيخ البحر، يا شيخ فلان، لم نسمع أحداً يقول: يا الله... إلى أن قال: ما يقعُ فيه المتسبِّبون إلى الإسلام الذين يشركون بالله

تعالى على جهل؛ شركهم في هذه الناحية وفي هذه الزاوية أفضع وأغلظ من شرك الأولين الصُّرحاء» اهـ.

وأصحاب الطُّرق الصُّوفيَّة لهم كثير من الحكايا الخرافيَّة التي ينسبونها إلى رؤسائهم ومعظميهم ومشايخهم الكبار ويعدّونها من الكرامات، مثل كونهم يُغيثون المكروب الذي يستغيث بهم ولو كان في بلد أخرى بعيدة، يسمعون استغاثته ودعائه لهم رغم بعده عنهم، وربما يكونون أمواتاً مقبورين، فيسمعونهم ويغيثونه، بزعمهم.

وهذه عقيدة مقرّرة عندهم؛ وجوب الاعتقاد بكرامات الأولياء الميّتين والأحياء، بل إنّ جحد الكرامات الشُّركيَّة التي ينسبها الصُّوفيَّة لكبارهم يعدّونه جحداً لقدرة الله تعالى، وانتقادهم والخطّ عليهم فيما يزعمونه يعدّونه من معاداة أولياء الله، وهكذا فإنَّ كلّ صاحب بدعة يوالي على بدعته ويعادي عليها، ويتعصّب لأهلها ولرؤسائه ومعظميهم غاية التعصّب.

وكرامات الأولياء حقٌّ، ولكن ليس مع الشُّرك، فالاستغاثة بالحيّ الغائب فيما يقدر عليه الحيّ الحاضر شرك أكبر محبط للعمل مخرج من الدائرة الإسلاميَّة، وكذلك الاستغاثة بالميت فيما يقدر عليه الحيّ شرك أكبر أيضاً، والاستغاثة بالحيّ الحاضر والغائب والميت فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر أيضاً، فكيف يجتمع الشُّرك مع الكرامة، وكيف يكون الشُّرك من الكرامة، فلا كرامة مع الشُّرك، إنّما هو مهانة واستدراج لفاعله، ونزغ شيطاني بحصول بعض ما يأملون زيادة في إضلالهم وإغوائهم، وإنّما يعطى الكرامة فضلاً من الله تعالى من كان على الإيمان الصّحيح، ممن حقّق التوحيد وأخلص دينه لله، وتبرّأ من الشُّرك وأهله، وعمل عملاً صالحاً صواباً وفق السُّنة، واتّقى الله تعالى ظاهراً وباطناً، سرّاً وعلانية.

ومن أعطي كرامةً فإنه يكتمها ولا يستعلن بها عجباً ورياءً، وما تزيده الكرامة إلا إيماناً وتسليماً وخشية لله تعالى.

قال الله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [يونس: ٦٢-٦٣].

والوليُّ هو: المؤمن المحبُّ لله تعالى ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - محبةً شرعيةً، المعظمُ لدين الله تعالى بفعل ما أمر وترك ما نهى، الموالي لأوليائه، المعادي لأعدائه.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِيَ اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةً لَئِيمَةً ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٤-٥٦]

ولا يكون الوليُّ لله ولياً إلا إذا حقق التوحيد الخالص، واعتقد الاعتقاد الصحيح، المبني على الكتاب والسنة، وعمل بالشرع المطهر، وسار على نهج السلف، فاقتفى آثارهم، واقتدى بهم.

وقال تعالى مبيناً شرط المحبة الحقيقية لله تعالى، وهو اتباع الرسول - صلى الله عليه وسلم -، والانقياد له ظاهراً وباطناً: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١].

ومن صفات أولياء الله حقاً أنهم لا يزكون أنفسهم، ولا يدعون الولاية والصَّلاح، بل يتواضعون ويحقرون أعمالهم، ويعتقدون فيها النقص والقصور، وأنهم مفتقرون إلى رحمة الله ورضوانه.

وأعظم النَّاس ولاية لله تعالى بعد الأنبياء أصحاب رسول الله - صَلَّى الله عليه وسلم -، فهم المثال الذي يقتدى به في الولاية بعد الأنبياء، فمن كان على عقيدتهم ومنهجهم وطريقتهم في الاعتقاد ولزوم الشَّرع المطهَّر والعمل به فهو الوليُّ لله حقًّا.

وقول الشيخ - رحمه الله -: «أغلظ شُرْكَاً من الأوَّلِينَ» أي: في هذا الباب من العلم، وهو باب الدُّعاء الذي يدخل فيه الاستغاثة والاستعاذة وطلب الحوائج من الأموات وأصحاب الأضرحة، فالمشركون المتأخرون أسوأ شركاً وأقبح من المشركين الأوائل من ناحية دعاء غير الله، والاستغاثة والاستعاذة بغير الله تعالى فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ لأنهم يفعلون الشرك في الرِّخاء والشُّدَّة، وليس أنهم أسوأ من المشركين في كلِّ شيء، فالمشركون الأوائل كانوا يكفرون بالرسول - صَلَّى الله عليه وسلم - واليوم الآخر، ويكذبون القرآن، وهؤلاء يؤمنون بهذا كله مع جهل وبدع وعوائد وأمور فاسدة.

ومعلوم أنَّه لا فرق بين قليل الشُّرك وكثيره، فكلُّ شرك يبطل العمل الذي يداخله، وإن كان من الشُّرك الأكبر كدعاء غير الله والاستغاثة بغير الله من الأنبياء والصالحين فهو يبطل العمل السَّابق كله، والعمل الذي داخله، أي: يحبط العمل كله؛ ويخرج الإنسان من الدائرة الإسلامية؛ لأن الله تعالى قال: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ٦٥﴾ بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٦﴾ [الزمر: ٦٥-٦٦]. وبحوط العمل بطلانه.

والخسارة للمشرك في الآخرة وكلِّ من مات على غير التوحيد الخالص خسارة ما بعدها خسارة، لأنَّه يخلدُ في نار جهنَّم ولا يُخرجُ منها أبد الدَّهر، ولا يموت فيها ولا يحيى، ولا يفتَّر عنه من عذابها، ولا تقبل فيه شفاعاة على فرض حصولها، بل لا يشفع فيه أصلاً، وتُحرَّم عليه الجنَّة.

قال الله تعالى: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥].

وقال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَبْنَىٰ إِسْرَءِيلَ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

فإذا كان قليل الشرك ككثيره في إبطال العمل وخلود المشركين في النار؛ فما فائدة أن يقال: إن المشركين المتأخرين أغلظ شركاً من المشركين الأوائل من ناحية الدُّعاء والاستغاثة فقط، وليس حالهم بأغلظ ولا أقبح من المشركين الأوائل في باقي أصول الدِّين وشرائعه لأنهم ينتسبون إلى الإسلام؟

والجواب: أن فائدة ذلك هي العدل في الحكم، ويوم القيامة يكون ثمَّ العدل المطلق، قال تعالى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

ولأنَّ المشركين في النار يتفاوت عذابهم بحسب تفاوتهم في قبح الشرك وشدة المعادة للأنبياء والمرسلين، وتفاوتهم في الظلم الطُّغيان والجبروت، فعذاب فرعون وهامان وقارون وأبي جهل وأبي لهب وغيرهم من عتاة الكفر وصناديده ليس كعذاب غيرهم من المشركين، ممن لم يأتوا بجرائم مماثلة لما أتى به أولئك الأسياد والصناديد، وكذلك فإنَّ عذاب المنافقين في الدَّرَك الأسفل من النَّار، فدل على أنَّ النار دركات وطبقات، كلُّ طبقة يزيد عذاب أهلها عن التي فوقها، نعوذ بالله من النار ومن أهلها.

ومن أدلَّة تفاوت المشركين بالعذاب بحسب تفاوتهم في الجرائم وأنواع الشرك والأعمال الفاسدة قوله تعالى: ﴿أَفَمِنْ أَتْبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ

جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦٦﴾ هُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦٧﴾ [آل عمران: ١٦٢-١٦٣].

قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسيره»: «(هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ)؛ قال الحسن البصري ومحمد ابن إسحاق: يعني: أهل الخير وأهل الشر درجات، وقال أبو عبيدة والكسائي: منازل، يعني: متفاوتون في منازلهم ودرجاتهم في الجنة ودرجاتهم في النار، كما قال تعالى: (وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) الآية [الأنعام: ١٣٢]؛ ولهذا قال: (وَاللَّهُ بِصِيرِهِمْ يَعْمَلُونَ)، أي: وسيوفيهم إياها، لا يظلمهم خيراً، ولا يزيدهم شراً، بل يجازي كلًّا بعمله» اهـ.

ومن الأدلة أيضاً على ذلك التفاوت قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَفِلُونَ﴾ ﴿١٣١﴾ وَلِكُلِّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٢﴾ [الأنعام: ١٣١-١٣٢].

قال الشيخ السعدي - رحمه الله - في «تفسيره»: «(وَلِكُلِّ) منهم (دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا) بحسب أعمالهم، لا يجعل قليل الشر منهم ككثيره، ولا التابع كالمتبع، ولا المروءوس كالرئيس، كما أن أهل الثواب والجنة وإن اشتركوا في الربح والفلاح ودخول الجنة، فإن بينهم من الفرق ما لا يعلمه إلا الله، مع أنهم كلهم، قد رضوا بما آتاهم مولاهم، وقنعوا بما حباهم» اهـ.

وهذه القاعدة وما بني عليها من مقارنة بين مشركي الزمانين مستنبطة مما ذكره الله تعالى عن المشركين الأوائل في آيات عدة؛ أنهم كانوا يشركون في الرِّخاء ويخلصون لله الدُّعاء في الشِّدة، منها قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلِّ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ [العنكبوت: ٦٥-٦٦].

فأخبر الله تعالى عن المشركين الأوائل أنهم كانوا عند ركوب البحر وتلاطم أمواجه وخوفهم الهلاك يتركون دعاء أندادهم الذين يعبدونهم في البرّ حال الرّخاء والنعمة، وحال الأمن من البلاء والعقوبة والهلاك؛ يتركونهم فلا يدعونهم، ويخلصون الدّعاء لله وحده لا شريك له، لأنّهم يعلمون أنّ الله وحده هو المنجّي من كلّ كرب، فإذا استجاب الله تعالى دعاء من أخلص له الدّعاء منهم، فزالت عنهم الشّدّة، وزال البلاء، ووصلوا البرّ آمين، أشركوا به - عزّ وجلّ -، ودّعوا من لم ينجيهم حال شدّتهم، ومن لم يغثهم عند خوفهم وكربتهم.

وهذه الآية وأمثالها فيها استدلال على وجوب توحيد الألوهية بدلالة الالتزام؛ فإنه يلزم هؤلاء المشركين أن يخلصوا الله تعالى الدعاء في الرّخاء كما أخلصوه له في الشّدّة، والمعنى كما يقول الشيخ السّعديّ في «تفسيره»: «فهلّا أخلصوا الله الدّعاء في حال الرّخاء والشّدّة، واليسر والعسر، ليكونوا مؤمنين به حقّاً، مستحقّين ثوابه، مندفعاً عنهم عقابه» اهـ.

ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا أَجَبْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ مَتَلَعِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [يونس: ٢٢-٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوَّجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾ [لقمان: ٣٢].

فأخبر سبحانه وتعالى أن المشركين إذا كانوا في البحر وعلاهم الموج كالجبال أو السحاب لشدة وارتفاعه، وأيقنوا أنهم هلكى، أخلصوا الدُّعاء لله تعالى، فإذا نَجَّاهم انقسموا إلى فريقين:

الأول: مقتصد، قيل: جاحد كافر، وقيل: موحد مخلص دينه لله، وهو الصحيح، قال الإمام البغوي في «تفسيره» (٦/ ٢٩٣): «أي: عدل موفٍ في البرِّ بما عاهد الله عليه في البحر من التَّوحيد له، يعني: ثبت على إيمانه» اهـ.

والمقتصد هو: المتوسِّط في العبادة والشُّكر والعمل بمقتضى التَّوحيد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾ [فاطر: ٣٢] فالمقتصد لم يقيم بشكر الله وعبادته تعالى على وجه الكمال، قد خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً.

وهذا الفريق صار موحدًا بعد النِّجاة ولكن مع تقصير ومعاصٍ، لذلك قال الحافظ ابن كثير - رحمه الله - في «تفسيره» (٦/ ٣٥١) بعد أن ذكر المعنى الثاني للمقتصد: «ويحتمل أن يكون مرادًا هنا أيضاً، ويكون من باب الإنكار على من شاهد تلك الأهوال والأمور العظام والآيات الباهرات في البحر، ثم بعدما أنعم عليه من الخلاص، كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التَّام، والدُّوب في العبادة، والمبادرة إلى الخيرات، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً والحالة هذه، والله أعلم» اهـ.

الثاني: من رجع بعد النِّجاة إلى الشُّرك الذي كان عليه قبلها، فناسب أن يوصف بأنَّه (خَتَّار) أي: غَدَّار، (كُفُّور) أي: جحود بنعم الله تعالى، فلا يشكرها، وإنما يتناساها ولا يذكرها.

قال الشيخ السَّعْدِيُّ - رحمه الله - في «تفسيره»: «وفرقه كافرة بنعمة الله، جاحدة لها، ولهذا قال: (وَمَا يَحْدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ) أي: غدار، ومن غدره، أَنَّهُ عاهد رَبَّهُ لئن أنجيتنا من البحر وشدته لنكونن من الشَّاكرين، فغدر ولم يف بذلك، (كُفُور) بنعم الله، فهل يليق بمن نَجَّاهم الله من هذه الشَّدة، إِلَّا القيام التَّامَّ بشكر نعم الله؟» اهـ.

وبهذا تمَّ شرح متن «القواعد الأربع»، للشيخ المجدِّد الإمام محمَّد بن عبد الوهَّاب - رحمه الله -، أسأل الله تعالى أن ينفع به، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يوفقنا لفهم دينه والعمل به والدَّعوة إليه والصَّبر على الأذى فيه، والثبات على التَّوحيد والسُّنة إلى أن نلقى الله، وصلىَّ الله وسلَّم وبارك على عبده ونبِيِّه محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين.



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٣	مقدّمة
٤	التّعريف بمؤلّف القواعد الأربع.
٦	التعريف بمتن القواعد الأربع.
٧	متن رسالة القواعد الأربع.
١١	شرح مقدّمة المؤلّف بين يدي القواعد.
٤٧	القاعدة الأولى.
٥٩	القاعدة الثانية.
٦٧	القاعدة الثالثة.
٨٥	القاعدة الرَّابعة.
٩٥	الفهرس